التّناصّ في شعر المديح النّبويّ
كعب بن مالك نموذجا

د. سعاد سيد محجوب
أستاذ الأدب والنقد المشارك
كلية الدراسات الإسلامية والعربية – دبي

ملخص البحث

تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على مفهوم التناص، ثم كشف النقاب عن أهم محاور التناص في شعر المديح النبوي (كعب بن مالك نموذجا)، والغوص في دواخله؛ لسبر أغواره وتسعى إلى الوقوف على مدى التفاعل النصوصي بين النصوص، كذلك تهدف إلى معرفة الآليات التي استند إليها هذا المنهج؛ ومن ثم معرفة مدى فاعليته وخصائصه. وتهدف كذلك إلى غرس بعض الفسائل الطيبة في سوح النقد العربي، وتوظيف النظريات النقدية الحديثة؛ حتى تدلي بدلوها لتطوير النقد الأدبي. وستلقي الضوء على التناص في شعر المديح النبوي متخذة من كعب بن مالك نموذجا وسنتناول التناص الديني والتناص الأدبي والتناص مع التاريخ والتراث.

المقدمة

في عصر صدر الإسلام، تحول غرض المديح من مديح غايته إرضاء العباد، إلى مديح غايته إرضاء رب العباد، وعلى مر العصور نهل الشعراء الذين شرح الله تعالى صدورهم للإسلام من القرآن الكريم الدرر النفيسة؛ فهو كتابهم المقدس؛ الذي يرد إليه كل صادٍ فيرتوي من رحيق مفرداته الشريفة، ومعانيه اللطيفة، فضلا عن الأسلوب والصور والتشبيهات التي بلغت الغاية في الدقة والكمال، وكثيرا ما يستدعي الشاعر القصص التي وردت في القرآن، ويستشف منها بلاغة الأسلوب، وجمال العرض وحسن التخلص، وصولا إلى الأهداف السامية منها كالعظة والعبرة، وعندئذ يسمو حس الشاعر الفني، ويرتقي ذوقه الأدبي؛ لأن القرآن عصم لسانه من الخطأ واللحن، فهو يحاول محاكاة أسلوب القرآن، أو

الاقتباس من آياته الكريمة، مراعيا في ذلك ما يناسب الموضوع أو الموقف الذي هو بصدده؛ ليضع ما اقتبسه من القرآن بنصه، أو معناه في القوالب التي تناسبه.

ومن المصطلحات النقدية الحديثة ما عُرف بنظرية التناص، وقد استرعت هذه النظرية اهتمام النقد الأدبي المعاصر، وأصبحت واحدة من مفردات معجمه، وسجلت حضورا متميزا في موضوعات الشعر المختلفة؛ منذ أن وضعت جوليا كريستيفا أطر النظرية في كتابها الموسوم بـ (علم النص)[1] وهو المصنف في كيفية تفاعل الشاعر مع النصوص السابقة، ومن ثم توظيفها في شعره، وعلى الباحثين تقع مهمة تحليل النص الجديد؛ حتى يتمكنوا من استخلاص الآليات التي تم بها التداخل والتفاعل بين النصين؛ ومن ثم يكتب تاريخ ميلاد لنص جديد.

لقد تباينت تناصات شعراء المديح النبوي بتباين العصور الأدبية، وما طرأ على كل عصر من العصور من مستجدات أثرت فيه إيجابا؛أو سلبا؛ مما يدل على أن البعد الزماني أو المكاني ترك بصماته واضحة في النصوص؛ فضلا عن تباين الأفكار، مع الثوابت التي لا حياد عنها، فأدب المديح النبوي يستمد شرعيته من طاعة الله تعالى ومحبة الذات الإلهية العليا، وهي تمثل له الثوابت التي ينطلق منها، بل عليها يستند ويتكئ، وتعني هذه الاتكاءة توظيف النص توظيفا فنيا، وبناءً على ذلك يتحول التناص إلى آلية من آليات الإثراء والزيادة المعرفية من ناحية الكيفية؛ لأنه يدفع بالعملية الإبداعية قدما إلى الأمام؛ كذلك فاللاحق لا يستطيع أن يحقق كيانه وذاته، و مصداقيته إلا بإثبات فضل السابق ومدى فاعليته.

ودفعني إعجابي بشعر كعب بن مالك الذي أرخ فيه لمسيرة الدعوة المحمدية، وجهادها ضد الكفار من أجل رفع راية الإسلام إلى دراسة شعره تحت مظلة التناص، من أجل الولوج إلى عالمه الشعري؛ للوقوف على مدى اقتباسه من

١- رولان بارت: لذة النص، دار الشجرة للنشر والتوزيع باريس، ط٢، ٢٠٠٢م، ص/ ٢٩.

القرآن الكريم، وتناصه مع النصوص الأدبية، والتاريخ والتراث، ومدى فاعلية التناص في شعره، وكيفية استدعائه للنصوص السابقة، ومدى تأثيرها في شعره؛ لكي أقدم رؤية نقدية تنبع من تجربة المديح النبوي في خطاب كعب بن مالك الشعري، للوقوف على التناص بين النصوص، في محاولة جادة لاستجلاء بعض صور التناص وأشكالها المختلفة، مع يقيني التام أن ما سيتم ذكره من تناصات في شعر كعب بن مالك ما هو إلا غيض من فيض؛ لأن التناصات الخفية كثيرة، وبناءً على ذلك تم تقسيم البحث إلى فصلين وخاتمة بعد مقدمة، على النحو الآتي:

المبحث الأول: ناقش مفهوم التناص وآلياته في شعر كعب بن مالك.

وجاء المبحث الثاني: يحمل عنوان ضروب التناص في شعر كعب بن مالك؛ حيث ناقش الاقتباس من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، والتناص الأدبي، والتناص مع التاريخ والتراث.

وأشارت الخاتمة إلى أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

وفي ثبت المصادر والمراجع تمت الإشارة إلى المصادر والمراجع التي تم الاستعانة بها في الدراسة. وضمت مكتبة البحث العديد من المصادر والمراجع على رأسها القرآن الكريم وبعض كتب الحديث النبوي الشريف، وديوان الشاعر موضع الدراسة، فضلا عن العديد من الكتب التراثية؛ فعلى سبيل التمثيل لا الحصر:كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، كتاب مشكلة السرقات الأدبية في النقد العربي لمصطفى هدارة، وغيرها من المراجع القديمة والحديثة، وقد ضم فهرست المصادر والمراجع قائمة بعناوين الكتب التي اعتمدت عليها الدراسة.

وقد اعتمدت هذه الدراسة المنهج الوصفي في معالجة النصوص وتأويلها، مع مراعاة عدم ليّ عنق النص، أو تحميله مالا يحتمل.واعتمدت أيضا المنهج

التاريخي في تتبع النصوص التي تأثر بها الشاعر ورصدها في مظانها المختلفة.

وكان ديوان الشاعر كعب بن مالك حقلَ البحث والتنقيب لتحديد ظاهرة التناص، ثم تحليل النصوص لمعرفة الأثر الذي تركه هذه الظاهرة في خطاب مالك الشعري.

أما الدراسات السابقة التي استفدت منها فهي على سبيل التمثيل لا الحصر:كتاب تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) محمد مفتاح، كتاب الأسلوبية وتحليل الخطاب لنور الدين السد، ومن الكتب المترجمة كتاب علم التناص (جوليا كريستيفا) و(مارك انجينيو): كتاب أصول الخطاب النقدي: ترجمة أحمد المديني.

لم أقف على دراسات مستقلة تناولت الموضوع الذي طرحه هذا البحث؛ أي نظرية التناص في شعر المديح النبوي(كعب بن مالك نموذجا) مع ثراء شعره بالآليات التي تتيح تطبيق هذه النظرية تطبيقا واسعا في شعر المديح النبوي؛ فالنصوص التي جادت بها قريحة الشاعر تستحق الوقوف عندها والتأمل فيها؛ لمعرفة مدى وعي الشعراء الذين جندوا أنفسهم لمدح الرسول صلى الله عليه وسلم.

المبحث الأول: مفهوم التّناصّ وآلياته في شعر كعب بن مالك[٢]

أ- المفهوم

عرفت معاجم اللغة كلمة النص، وعلى الرغم من تعدد التعريفات؛ لكنها تتشابه إلى حد كبير، ومن هذه التعريفات ما أشار إليه صاحب اللسان: «النصّ لغة: رفعك الشيء، ونصّ الحديث نصّا: رفعه. وكل ما أظهر فقد نص. وقال عمرو بن دينار: ما رأيت رجلا أنصّ للحديث من الزهري، أي أرفع له وأسند. يقال: نص الحديث إلى فلان: أي رفعه، كذلك نصصته إليه ونصّت الظبية جيدها: رفعته»[٣].

أما المعجم الوسيط فقد ذكر لمادة نصص معاني عدة: «منها: نص على الشيء أي: عينه وحدده، ونص الحديث أي: رفعه وأسنده للمحدث، ونص المتاع إذ جعل بعضه فوق بعض... وتناص القوم بمعنى ازدحموا»[٤].

وهكذا يبدو أن المعاجم العربية كادت تتفق حول مفهوم مادة نص في اللغة، أما المعنى الاصطلاحي فهو: «صيغة الكلام الأصلية التي وردت من المؤلّف»[٥].

٢- هو كعب بن مالك بن أبي بن كعب، يماني الأصل، خزرجي النسب، عدناني النشأة، شاعر مخضرم، نشأ وترعرع في أحضان القوافي، تضاربت الروايات في تاريخ ولادته وتاريخ وفاته، أرخ له الواقدي أنه مات سنة خمسين (شذر الذهب في أخبار من ذهب: أبو الفلاح عبد الحي بن العماد مصر ١٣٥٠هـ، ج١ / ٥٦. بينما سجل البغدادي قائلا: «توفى كعب بن مالك في مدة خلافة معاوية سنة خمسين، وقيل: سنة ثلاث وخمسين (البغدادي، عبد القادر بن عمر: خزانة الأدب القاهرة د.ت، ج١ / ٢٧٦)، وكانت قبيلته الخزرج قد هاجرت إلى أرض الحجاز بعد سيل العرم، ونزلوا بيثرب، وزاده الله تعالى شرفا بعد الإسلام؛ إذ كان من زمرة الأنصار الذين نصروا الرسول صلى الله عليه وسلم وآووه ووقروه (ابن سعد، محمد بن منيع الزهري: الطبقات الكبرى، ليدن ١٣٢٢هـ. ٥ / ٢٠١، وسيرة ابن هشام ٢ / ٤٣٩.

٣- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صارد بيروت،ط٢، ١٣٠٠هـ. مادة نصص.

٤- إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط، دار الفكر بيروت، د.ت، مادة نص، ص / ٩٢٦.

٥- المصدر السابق: ص / ٩٢٦.

التناص يعني أن يستدعي النص الحاضر النص الغائب؛ في أي صورة من الصور، أو بأي شكل من الأشكال، والغرض من هذا الاستدعاء أن يحقق عددا من الوظائف المعنوية، والفنية، ومنها ما يتعلق بالأسلوب. كل تلك الفنون تولد من خلال التداخل والتركيب والترابط، ولذلك يقول عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ): «وأعلم أن مثل واضع الكلام مثل من يأخذ من الذهب أو الفضة؛ فيذيب بعضها في بعض، حتى تصير قطعة واحدة...، فكما لا تكون الفضة،أو الذهب خاتما أو سوارا أو غيرها من أصناف الحلي بأنفسهما؛ ولكن بما يحدث فيهما من الصورة، كذلك لا تكون الكلم المفردة التي هي أسماء وأفعال وحروف شعرا من غير أن يحدث فيها النظم» ...كما أن محالا إذا أنت أردت النظر في صوغ الخاتم، وفي جودة العمل ورداءته، أن تنظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة، كما الذهب الذي وقع فيه العمل وتلك الصنعة، كذلك محال إذا أردت أن تعرف مكان الفضل والمزية في الكلام، أن تنظر في مجرد معناه...»[٦]

وعرفت (جوليا كرستيفيا) التناص بقولها: «ذلك التداخل النصي الذي ينتج داخل النص الواحد بالنسبة للذات العارفة، فالتناص هو المفهوم الوحيد الذي سيكون المؤشر على الطريقة التي يقرأ بها النص التاريخ ويتداخل معه»[٧] بينما عرفه محمد مفتاح بقوله: «هو تعالق نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة»[٨] وقوله: تعالق أي الدخول في علاقة. وقوله كذلك أ: «فسيفساء من نصوص أخرى أدمجت فيه بتقنيات مختلفة»[٩] أما عبد الملك مرتاض فقد عرف التناص بقوله:

٦- الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز: تعليق السيد محمد رشيد رضا دار المعرفة بيروت، ١٩٨٢م، ص / ٣١٢.
٧- في عام ١٩٦٦ ١٩٦٧م وضعت الكاتبة البلغارية (جوليا كرستيفيا) اللبنات الأولى لنظرية التناص في دراسة تم نشرها في مجلتي تيل كيل وكيتك) في فرنسا، ينظر كتاب أصول الخطاب النقدي: مارك انجينيو، ترجمة أحمد المديني، دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٨٧م.
٨- مفتاح، محمد: تحليل الخطاب الشعري(استراتيجية التناص)، المركز الثقافي، الدار البيضاء المغرب، ط٣، ١٩٩٢م، ص / ١٢١.
٩- المرجع السابق: ص / ١٢١.

«حدوث علاقة تفاعلية بين نص سابق ونص حاضر؛ لإنتاج نص لاحق»[١٠] بينما عرفه الناقد الفرنسي (جيرار جنيت) بقوله: «علاقة حضور متزامن بين نصين أو أكثر أو هو الحضور الفعلي لنص داخل نص آخر»[١١] وذهب محمد مفتاح إلى أن التناص: «من الظواهر اللّغوية المعقدة الّتي تستعصي على الضّبط والتّقنين، ويعتمد في تمييزها على ثقافة المتلقّي، وسعة معرفته، وقدرته على التّرجيح. على أنّ هناك مؤشرات تجعل التّناص يكشف عن نفسه ويوجه القارئ للإمساك به، ومنها: التّلاعب بأصوات الكلم والتّصريح بالمعارضة، واستعمال لغة وسط معيّن، والإحالة على جنس خطابيّ برمته».[١٢]

ويشير الغذامي إلى العلاقة التي تربط بين النصوص، و شبهها بالعلاقة الأبوية التي تربط بين الوالد والولد: «إن العمل الأدبي يدخل في شجرة نسب عريقة، وممتدة كالكائن البشري؛ فهو لا يأتي من فراغ كما أنه لا يفضي إلى فراغ، إنه نتاج أدبي لغوي لكل ما سبقه من موروث أدبي وهو بذرة خصبة تؤول إلى نصوص تنتج عنه»[١٣]

ومن معاني التناص تداخل النصوص، ومن هذا المنطلق نجد أن النقائض من صميم مصطلح التناص، إذ تعتمد فلسفة النقائض على أن ينقض الشاعر معاني القصيدة الأخرى؛ ثم يأتي بما يتفوّق به عليه، فضلا عن أن النقائض تكون بين شاعرين أو أكثر أي: نص سابق وآخر لاحق، فاللاحق يأخذ من السابق بعض المعاني والأفكار، ويوظفها في نصه؛ لذا يمكن القول إن مرجعيةَ النص نصوصٌ سابقة له، وهذا ما أكده بارت رولان في كتابه التحليل النصي: «النصوص اللاحقة

١٠- مرتاض، عبد الملك: فكرة السرقات الأدبية ونظرية التناص، مجلة علامات، في النقد الأدبي، النادي الأدبي الثقافي جدة ١٩٩١م، ج١ / ٧٥.
١١- بنيس، محمد: الشعر العربي الحديث بنياته وابدالاته، دار توبقال المغرب، ط١، ١٩٩٠م، ص / ١٨٦.
١٢- محمد مفتاح: استراتيجية التناص، ص / ١٣١.
١٣- الغذامي، عبد الله: ثقافة الأسئلة، النادي الأدبي الثقافي، جدة ط٢، ١٩٩٢م،ص / ١١١ ١١٩.

للنص تعد من مصادره».[١٤]

يقوم مفهوم التناص على محاولة دراسة النص الأدبي في ضوء علاقته بنصوص سابقة، و بعبارة أخرى تحويل عدة نصوص يقوم بها نص مركزي يحتفظ بزيادة المعنى (مرجعيات)؛ وهكذا أصبح للتناص حضور «متميز» في مجال الدراسات الأدبية في العصر الحديث، وتوجد بعض الضبابية تحوم حول مفهوم التناص والاقتباس والتضمين، فهنالك من يخلط بين المفاهيم الثلاثة مثل أحمد الزعبي في مصنفه التناص نظريا وتطبيقيا: «التناص أن يتضمن نص أدبي ما نصوصا أو أفكارا أخرى سابقة عليه عن طريق الاقتباس أو التضمين أو الإشارة أو ما شابه ذلك من المقروء الثقافي لدى الأديب بحيث تندمج هذه النصوص أو الأفكار مع النص الأصلي وتندغم فيه؛ ليتشكل نص جديد واحد متكامل»[١٥] وهنالك من يفرق بينها مثل إبراهيم خليل إذ يقول: «قد تتعدد أشكال التناص حتى ليتخطى فكرة الاقتباس، ويتفوق عليها، فإذا كان الأول يعني اقتطاع النص السابق والزج به في النص اللاحق دون أن يتفاعل مع جزيئياته، أو يتحد معها؛ فإن التناص يسعى لإنشاء علاقة ما بين النصين فريدة وحميمة، قد تبدأ بالإشارة العابرة اللاواعية، وتنتهي عند إحاطة القارئ بمناخ دلالي يدفع نحو قراءة تأويلية تقوم على التفكيك وإعادة البناء».[١٦]

كذلك لابد من الإشارة إلى الفرق بين مفهوم مصطلح السرقات الأدبية[١٧]، الذي حاز اهتمام المدارس النقدية القديمة، وبين مصطلح التناص بوصفه نظرية

١٤- بارت رولان: التحليل النصي، ص / ٣٥.
١٥- الزعبي، أحمد: التناص نظريا وتطبيقيا، مؤسسة عمون للنشر والتوزيع عمان ط٢، ٢٠٠٠م، ص / ١١.
١٦- خليل، إبراهيم: من معالم الشعر الحديث في الأردن وفلسطين، دار مجدلاوي عمان ط١،٢٠٠٦م، ص / ٩٤.
١٧- والسرقة في اللغة اسم من سرق، وسرق ماله أي: أخذه خفية (القاموس المحيط الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة بيروت ط٥، ١٤١٦هـ، ج١ / ١٥٣). وفي الاصطلاح تعني: «الأخذ من كلام الغير وهو أخذ بعض المعنى أو بعض اللفظ سواء أكان أخذ اللفظ بأسره أم المعنى بأسره».

نقدية حديثة حازت اهتمام المدارس النقدية الحديثة. لقد أرّقت السرقات الأدبية العديد من المدارس النقدية المختلفة، وقد تحاشى ابن قتيبة(٢٧٦هـ) إطلاق لفظ السرقة، واستعاض عنها بالأخذ والسلخ والاتباع[١٨] أما ابن سلام الجمحي(٢٣٢هـ) فسماها بالاجتلاب والإغارة[١٩]، بينما زاوج الجاحظ(٢٥٥هـ) بين السرقة والأخذ[٢٠] وفي أسرار البلاغة ذكر الجرجاني (٤٧١هـ): «إن الحكم على الشاعر بأنه أخذ من غيره وسَرَق، واقتدى بمن تقدَّم وسبق، لا يخلو من أن يكون في المعنى صريحا، أو في صيغة تتعلق بالعبارة»[٢١]

وبناء على ما قد سبق، نستنتج أن أفضل أنواع التناص «ما أحدث ضربا من التماهي بين النصين؛ حتى ليتشرب النص المضيف جزئيات النص الضيف ويهضمه في داخله حتى يذوب فيه، أما إذا ظل النص الطارئ طافيا على مياه النص، منعزلا عن بنيته فإنه يمسي ضربا من العبء الزائد على النص أو اللغة الفائضة التي يمكن شطبها، أو عزلها عن سياقها البنائي».[٢٢]

ومما سبق نخلص إلى أن الآراء تباينت، حول مفهوم التناص، فالمفهوم ما زال يتعثر أو يعاني من بعض الاضطراب أو حالة من حالات عدم الاستقرار؛ لأنه ما زال في حالة شد وجذب بين النظريات النقدية الحديثة؛ فضلا عن المفاهيم النقدية التراثية، وعلى الرغم من ذلك فالنظرية متداولة تحت عدد من المصطلحات منها: التّناص، والتّناصية، و النّصوصية، و تداخل النصوص و مصطلح التعالق

١٨- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم(٢٧٦هـ): الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد شاكر، دار الحديث القاهرة ط٢، ١٤٢٣هـ: ج١ / ١٢٩.
١٩- ابن سلام: محمد، طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود شاكر مطبعة المدني جدة د. ط د. ت: ج٢ / ٧٧٣.
٢٠- الجاحظ، عمرو بن بحر: كتاب الحيوان، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل بيروت ١٤٠٨هـ، ٢ / ١٣١- ١٣٢.
٢١- الجرجاني، عبد القاهر: أسرار البلاغة، مطبعة وزارة المعارف استانبول، د.ت ص / ٢٤١.
٢٢- شبانه، ناصر جابر: التناص القرآني في الشعر العماني الحديث، مجلة جامعة النجاح للأبحاث، عمان، العدد الرابع ٢٠٠٤م ج٢١ / ١٠٨٠.

النصي؛ وعلى الرغم من كثرة الأسماء، ظل مصطلح التناص أكثر شيوعا وصيتا في ميادين الدرس النقدي الحديث.

ومما لا شك فيه أن النصوص تتوالد، فكل نص يشكل فسيلة لنص جديد، والتجديد لا يعني أن يتنصل النص الجديد من الموروث الثقافي والأدبي والفكري؛ فضلا عن العقيدة لأنها محور الارتكاز، وأيضا البيئة التي نشأ فيها النص وترعرع، فكل هذه المحاور من الأهمية بمكان؛ لأنها تشكل رأس الرمح بالنسبة إلى التناص، ويرى الزعبي أن دائرة مصادر التناص تتسع: «لتشمل كل ما تقع عليه عين المبدع أو الشّاعر أو تصل إليه مشاهدته وتجاربه، منذ نعومة أظفاره...، بل إنّ حدود دائرته لا تتجمد عند ثقافة واحدة، فقد تصل إلى ثقافات متعدّدة»[٢٣] كذلك لابد من الاهتمام بكيفية إعادة صياغة النص؛ حتى يخرج من مربع الاجترار والتكرار إلى مربع الإبداع لا الاتباع.

ولعله من نافلة القول أن أشير إلى أن الشاعر كعب بن مالك من الشعراء المخضرمين، فقد كان من الشعراء المعدودين قبل إسلامه، على الرغم من عدم وجود شعر له يدل بوضوح على نتاجه الشعري قبل إسلامه، لكن قصة وفوده على الرسول صلى الله عليه وسلم قبل إسلامه مع ابن معرور توضح أنه كان من الشعراء الفحول في فترة الجاهلية،[٢٤] وعندما منَّ الله تعالى عليه بنعمة الإسلام، كان القرآن الكريم مصدر إلهامه وإبداعه؛ إذ أضفى على لغته العذوبة، وعلى معانيه السهولة والرقة؛ فضلا عن أسلوبه في طرح القضايا ومعالجتها بلغة القوافي؛ لأن: «التراث الديني في كل العصور ولدى كل الأمم مصدر سخي من مصادر الإلهام الشعري؛ حيث يستمد منه الشعراء نماذج وموضوعات وصورا أدبية. والأدب

٢٣- الزعبي، أحمد: التّناص نظريّا وتطبيقيّا، ص / ٩.

٢٤- العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين(٦١٦هـ): إعراب الحديث النبوي الشريف، تحقيق عبد الإله نبهان، مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق ط٢، ١٩٨٦م، ص / ٤٠٧.

العالمي حافل بالكثير من الأعمال الأدبية العظيمة التي محورها شخصية دينية أو موضوع ديني».[٢٥]

كذلك وظف كعب كل إرثه الثقافي والفكري وموهبته وقدراته الفنية في شعره الإسلامي؛ إذ يعج إرث كعب بن مالك الأدبي، ومخزونه الثقافي بعدد من المصطلحات والمفاهيم، تطل برأسها بين ثنايا النصوص، وهذا أمر يدل على أن هذا التأثير كان تلقائيا، أو جاء عفو الخاطر، وهذا ما أكدّه تودوروف بقوله: «ثمّة عناصر غائبة من النصّ، وهي على قدر كبير من الحضور في الذاكرة».[٢٦]

وهكذا نستنتج أن أهم مصدر للنص هو النصوص؛ أي أن النص يضع بذرة لنصوص أخرى، أو يتداخل، أو ينبثق، أو يتعالق مع نصوص أخرى، وبذا يكون مصدرا لعدد من النصوص، وخلاصة لعدد من الأفكار والثقافات، والأحداث التاريخية، فلا حدود ولا فواصل ولا حواجز بين النصوص، ولا يغيب عن البال أن للبيئة حضورا متميزا في رفد النص؛ إذ تشكل بأبعادها المختلفة والمتباينة مصدرا من مصادره.

ب- آليات التناص في شعر كعب بن مالك

لقد هيأ الله تعالى لكعب بن مالك آليات الجهاد التي تعينه على القتال؛ فاتخذ من شعره سلاحا معنويا يحارب به كفار قريش؛ لأنهم لجأوا إلى الشعر؛ فكان كعب من أولئك الثلة التي نصرت الإسلام بلسانها، وذبت عن محارم الله تعالى وحياض الإسلام، أما المشاركة المادية الفعلية فأرخ لها بقوله: «لم أتخلف عن

٢٥- زايد، على عشري: استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي القاهرة ١٩٩٧م. ص / ٧٥.

٢٦- تودوروف تزفيتان الشعرية: ترجمة شكري المبخوت، ورجاء بن سلامة، دار توبقال للنشر الدار البيضاء ط١، ١٩٨٧م،ص / ٣٠.

رسول الله في غزوة إلا غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر»[٢٧] وحسبه من الفخر أن المصطفى صلى الله عليه وسلم نعته بقوله: «أنت تحسن صنعة الحرب».[٢٨]

وتتولى آليات التناص مهمة شرح الكيفية التي تناصت بها هذه النصوص، وهذه الآليات هي السهل الممتنع ، وتحديدها محاولة صعبة وشاقة؛ والعلة تكمن في الخصوصية التي يتمتع بها كل نص من النصوص؛ إذ لكل نص آلياته الخاصة به، وقد أشار محمد مفتاح إلى هذه الصعوبة: «إنه من الصعب على باحث واحد أن ينجز تشخيصا كافيا لتلك الآليات»[٢٩] لكن تمكن بعض النقاد من حصر بعض هذه الآليات منهم على سبيل المثال رجاء عيد الذي لخصها في قوله: «توثيق دلالة، أو تأكيد موقف، أو ترسيخ معنى، أو مؤازرة النص، إما بتضمين صريح، وإما بتلميح وتلويح أو يكون من وجه آخر رفضا لمقولة أو نفيا لمعتقد»[٣٠]

المبحث الثاني: ضروب التناص في شعر كعب بن مالك

اتفقت مدارس النقد الحديث في تصنيف التناص إلى نوعين؛ ولكنها اختلفت في تسميته واعتمدت الدراسة في هذا المحور على ما ذهب إليه محمد مفتاح، وعزة شبل وأحمد فراج؛ فقد اتفقوا من حيث المضمون واختلفوا من حيث التصنيف.

النوع الأول: أطلق عليه محمد مفتاح اسم التناص الخارجي خريطة الثقافة

٢٧- البخاري، أبو عبد الله بن إسماعيل: صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق بيروت ط١، ٢٠٠٢م. ٦ / ٤.
٢٨- الحصري القيرواني، أبو اسحاق إبراهيم بن علي: زهر الآداب وثمرة الألباب، شرح زكي مبارك دار الجيل بيروت لبنان ط٤، د. ت، ص / ٥١.
٢٩- مفتاح، محمد: دينامية النص، مركز الثقافي العربي الدار البيضاء ط١، ١٩٨٧م، ص / ٩٤.
٣٠- عيد، رجاء: التراث النقدي (نصوص ودراسة) منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٨٣م، ص / ٢٣٢.

التي ينتمي إليها، وزمانيا في حيز تاريخي معين[٣١]، بينما سمته عزة شبل بالتناص المباشر[٣٢]، وخالفهم أحمد فراج وسماه التناص الشكلي[٣٣] فقد اتفقوا أو كادوا أن يتفقوا من حيث المعنى؛ أي أن النص اللاحق قد احتضن جزءا من النص السابق في تناغم وانسجام.

ومما سبق، نستخلص أن هذا النوع من التناص يهتم بالمظهر الخارجي، فربما يكون اسم تناص المظهر ألصق وأليق به.

النوع الثاني: صنفه محمد مفتاح تحت عنوان التناص الداخلي، ويقصد به «الصلات التي تربطها نصوص الأديب يفسر بعضها بعضا، وتضمن الانسجام فيما بينها، أو تعكس تناقضا لديه إذا ما غير رأيه»[٣٤] بينما تناولته عزة شبل تحت اسم التناص غير المباشر، أما أحمد فراج فسماه بالتناص المضموني، مع ملاحظة التضاد بين التسميات، ومن أهم آلياته الاستنباط، فضلا عن التناص الفكري والثقافي. والاستنباط يعمل في الأعماق الداخلية؛ إذا هذا النوع من التناص مجال اختصاصه جوهر النص.

هنالك ثلاثة أنماط من التناص عند كرستيفا الأول: النفي الكلي: وفيه يكون المقطع الدخيل منفيا كلية، الثاني النفي المتوازي: حيث يظل المعنى المنطقي للمقطعين هو نفسه إلا أن هذا لا يمنع من أن يمنح الاقتباس للنص المرجعي معنى جديدا، الثالث النفي الجزئي: حيث يكون جزء واحد من النص منفيا»[٣٥].

٣١- مفتاح، محمد: تحليل الخطاب الروائي (استراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي،ط١٩٩٧،١م ص / ١٢٥.
٣٢- شبل، عزة محمد: علم لغة النص النظرية والتطبيق، مكتبة الآداب القاهرة ٢٠٠٩م، ص / ٧٩.
٣٣- فراج، أحمد: نظرية علم النص ورؤية منهجية في بناء النص النثري، مكتبة الآداب القاهرة، ٢٠٠٣م، ص / ٧٩.
٣٤- مفتاح، محمد: تحليل الخطاب الروائي، ص / ١٢٥.
٣٥- كرستيفا: علم النص، ص / ٧٩

ومن جهة أخرى أشار مفيد نجم في مقاله الموسوم ب «التناص بين الاقتباس والتضمين والوعي واللاشعور إلى تقسيم آخر بناء على الدور الذي يقوم به في النص؛ أي وظيفته:

الأول: التناص الظاهري (الواعي أو الشعوري) ويضم الاقتباس والتضمين.

الثاني: التناص الخفي: (اللاشعوري) ويكون فيه المؤلف غير واعٍ بحضور نص في النص الذي يكتبه،[٣٦] ويقوم هذا التناص في استراتيجيته على الامتصاص والتذويب والتحويل والتفاعل النصي»،[٣٧] وهنالك ما يسمى بالتناص المتنوع الخارجي وهو حوار بين نص ونصوص أخرى متعددة المصادر والوظائف والمستويات بحيث يبدو النص حوارا بين النص وكاتبه وما يحمله الكاتب من خبرات سابقة، وبين النص ومتلقيه وما يملكه المتلقي من ثقافات سابقة؛ بينما أضاف جيرار جينيت أصنافا للتناص وهي:

١- الاستشهاد وهو الشكل الصريح للتناص.

٢- السرقة وهو أقل صراحة.

٣- النص الموازي: علاقة النص بالعنوان والمقدمة والتقديم والتمهيد.

٤- الوصف النصي: العلاقة التي تربط بين النص والنص الذي يتحدث عنه.

٥- النصية الواسعة: علاقة الاشتقاق بين النص(الأصلي / القديم) والنص السابق عليه (الواسع / الجديد).

٦- النصية الجامعة: العلاقة البكماء بالأجناس النصية التي يفصح عنها التنصيص

٣٦- المغيض، تركي،التناص في نماذج من الشعر المغربي المعاصر مجلة أبحاث اليرموك، سلسلة الآداب واللغويات، العدد الأول ٢٠٠٢م، ج ٢٠ / ٩٤.

٣٧- نجم، مفيد: التناص بين الاقتباس والتضمين والوعي واللاشعور، جريدة الخليج، ملحق بيان الثقافة، ٢٠٠١م، العدد٥٥.

الموازي.[٣٨]

بناء على ما سبق نستطيع أن نقسم التناص إلى قسمين رئيسين:

أ- التناص المظهري، وسماه مصطفى السعدني: «السطحي»[٣٩]

ب- التناص الجوهري.

ولابد من ملاحظة أن إقحام المتناصات في النص أو كثرتها، أو عدم انسجامها، أو تفاعلها بطريقة غير إيجابية مع النص، كل هذه المحاور تقلل من شأن التناص، بل تهبط بمستواه الفني، فكلما ابتعد التناص عن التكلف أو الصنعة وجد القبول وحظي بالرضى من قبل المتلقي أو القارئ. ويسعى المحور التالي إلى رصد محاولات الاقتباس من القرآن الكريم في شعر المديح النبوي عند كعب بن مالك.

١- الاقتباس من القرآن الكريم

النص القرآني يرفد النصوص الشعرية ويمدها بالآليات التي تمكنها من إظهار جمال الخطاب الشعري وقوته، بل يوثق له من خلال الألفاظ القرآنية التي يحملها النص في دواخله، والاقتباس من القرآن الكريم؛ والاقتباس لغة عرفه ابن فارس بقوله: «قبس: القاف والباء والسين أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على صفة من صفات النار، ثمّ يستعار. من ذلك القَبَس: شُعْلَةُ النار... ويقولون: أَقْبَسْتُ الرّجُلَ عِلمًا، وقَبَسْتُه نارًا»[٤٠].

وعرفه الفكيكي في الاصطلاح بقوله: «تضمين الشعر أو النثر شيئا من القرآن

٣٨- بنيس، محمد الشعر الحديث، ص / ١٨٦. (جيرار جينيت فرنسي الجنسية)

٣٩- السعدني: مصطفى: قراءة أخرى لقضية السرقات، منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٩١م، ص / ٩١.

٤٠- ابن فارس، أحمد زكريا:: أحمد بن فارس بن زكريا القزويني(٣٩٥هـ)معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت، ط١، ١٩٩١م،مادة ق، ب، س.

الكريم، أو الحديث النبوي الشريف، من غير دلالة على أنه منهما، مع جواز بعض التغيير (غير المخل) في الأثر المقتبس»[٤١].

الاقتباس -إذًا- لا يخرج عن محيط التناص بصورة أو أخرى؛ بل يدور في فلكه. والاقتباس من القرآن الكريم يسمو بلغة النص الأدبي؛ ويرفد الشاعر بمحاور معرفية متباينة؛ تشكل أطره الثقافية؛ التي تضم بين جنباتها حزمة من العلوم والمعارف؛ منها العلوم الدينية والدنيوية، وغيرها من المهارات والخبرات، فتتعاضد كل هذه المحاور؛ لترفد الشاعر بلوحات فنية تترجم قدرات الشاعر الأدبية وملكاته الفنية، فضلا عن الانسجام تحت مظلة التباين والاختلاف؛ ومن أدبيات الاقتباس أن يأتي عفو الخاطر أو يكون مجرد لمحة فنية لها مفعول السحر في نفس المتلقي، وتولد في دواخله العديد من الأحاسيس الكامنة؛ فتتداعى له الأحداث ويستطيع أن يدرك ما وراء هذا الاقتباس من معان ودلالات.

لقد كان فضاء الاقتباس من القرآن الكريم في خطاب كعب بن مالك الشعري فضاء واسعا؛ لما يمثله القرآن الكريم من ركيزة أساسية شكلت كل محاور حياته، فضلا عن السمو بذوقه الفني وحسه الأدبي، كذلك نمت علومه ومعارفه، وتطورت بفضل القرآن الكريم، ولا ينبغي تجاهل المخزون الثقافي والمعرفي الذي كان يتمتع به كعب بن مالك، كما أمدته الذاكرة الحافظة بعدد من محاور التراث الأدبي، فالموروث الثقافي رفد خطابه الشعري بمحاور متعددة، بينما سما الإسلام بوجدانه، وروحه، وفكره، وثقافته.

وذهب أحمد يوسف إلى أن: «الباقلاني (ت٤٠٣هـ) أدرك وعيا تناصيا من خلال كتابه إعجاز القرآن وإن لم يشر إليه بين النص القرآني والنص الشعري، جعله يقف على ما صار إليه النص القرآني، نصاً مسيطرا أو نصا حالا في مقابل

٤١- الفكيكي، عبد الهادي: الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر العربي، النمير للنشر والتوزيع، دمشق ط١٩٩٦،١م، ص/ ١٦

النص الشعري الذي آل إلى كونه نصا مُزاحا، وأن فاعلية كل منهما لم تنعدم؛ بل أدت إلى ترك بصمة النص الحال على قضايا النص المزاح نشأة وطبيعة...، ثم يضيف قائلا: ويبدو لنا دائمًا أنّه صاغ قضايا النّص الشعريّ من خلال علاقة «التّناص» الحادثة بين النّص القرآني والنّص الشعري؛ الأول بصفته نصّا «حالا» والثّاني بصفته نصّا «مزاحا»، وقد أنتجت هذه العلاقة ثمارها خلال البحث في قضية إعجاز النّص القرآني «الحال»، وظل النّص الشعري نصّا فعّالا في توجيه قضايا الأسلوب، والصّياغة والدّلالة في النّص القرآني، الّذي ظلّ بدوره مؤثراً وفعّالاً في صياغة قضايا النّص الشّعريّ على النّحو الّذي تمّ على يديه»[٤٢].

لقد سجل الاقتباس من القرآن الكريم حضورا متميزا في شعر كعب بن مالك، واعتمد عليه خطابه الشعري، مما ميز تجربته الشعرية الجديدة بعد إسلامه، وجعلها متفردة ومتميزة في كيفية الطرح وآلية الخطاب، وقد يكون الاقتباس من المفردات الشريفة، أو من معنى من المعاني السامية، أو من بعض العبارات، لقد وظف كعب بن مالك كل هذه الآليات واستثمرها في خطابه الشعري، وأصبحت مصدر إلهامه، وكان هدفه ومراده أن يترجم بصدق وشفافية طاعته لله تعالى، وحبه للرسول صلى الله عليه وسلم، وهكذا تهيأت له الأسباب لإحداث صيغ جديدة بكيفيات مختلفة، ومفردات جديدة غير مستهلكة؛ وبالتالي صب سوط عذاب على أعداء الإسلام، وكان شعره عليهم كوقع النبل.

في الاقتباس الديني يُضمن الشاعر نصه نصوصا من الكتب السماوية المقدسة أو أقوال الأنبياء، أما الاقتباس من القرآن الكريم فيعني أن يستدعي الشاعر نصوصا من القرآن الكريم؛ في شكل مفردات، أو معان، أو أسلوب، أو قصص، وإلى جانب الاقتباس من القرآن الكريم، يقتبس من السنة النبوية الشريفة؛ لأنها

٤٢- علي: أحمد يوسف: قراءة النّص، دراسة في الموروث النقدي، مكتبة الأنجلو المصريّة القاهرة ١٩٨٨م، ص/ ٢١٥، ٢٢٢.

المصدر الثاني للتشريع الإسلامي، وهي كذلك المصدر الثاني للغة العربية، وقد يتسع مفهوم الاقتباس الديني ليشمل: «الأدعية والشعارات الدينية».[٤٣]

والقرآن الكريم قمة الفصاحة بل منتهاها؛ لذا الاقتباس منه يسمو بلغة الخطاب الشعري؛ بما يحمله من مفردات شريفة، وهذا ما يكتسب النص الفصاحة والحلاوة والطلاوة؛ فيحظى بالقبول، فضلا عن ذلك يستمد النص الشعري من القرآن الكريم القيم السامية؛ مما يجعل رسالة الخطاب الشعري قوية وفعالة ومؤثرة؛ لأنه يرتقي بروح الخطاب الشعري، ويمنحه سمة التصديق.

لقد تصدى كفار قريش للدين الجديد وحاربوه بكل ما أوتوا من قوة، وجندوا لهذه الحرب كل سلاح مادي يمتلكونه، وكل سلاح معنوي يعرفونه، ويتلخص سلاحهم المعنوي في الشعر، والشعر ديوانهُم، وهم أهل الفصاحة والبلاغة؛ لذا لجأوا إلى الحرب اللسانية وسخروا كل أعوانهم من ملة الكفر واللات والعزى لمحاربة المسلمين، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يشجع الشعراء ويحثهم، بل يحفزهم؛ ليردوا على كفار قريش، وكان هذا التشجيع والحث خطابا صريحا موجها لكل شاعر منَّ الله تعالى عليه بنعمة الإسلام، وعندئذ تبارى الشعراء الذين شرح الله تعالى صدورهم للإسلام للذود عن حياض الإسلام، والذب عن محارم الله تعالى والدفاع عن النبي الكريم، وهكذا أصبح للسلاح المعنوي قوة فعالة لا يستهان بها؛ لأن جرح اللسان دائما أنكى من جرح السنان.

لقد كان مشهودا لكعب بن مالك قبل إسلامه بالعلم والفصاحة، وبعدما نهل من معين القرآن ووقف على المفردة الشريفة، والمعاني اللطيفة، والصور البلاغية والأسلوب المعجز، فازدادت فصاحته وبلاغته، ولا غرو في ذلك؛ فقد سلبت فصاحة القرآن لب كفار قريش، وسحرت قلوبهم على الرغم من عداوتهم

٤٣- ذو القدر، فاطمة: التناص الديني في أدب المرأة الكويتية شعر سعاد الصباح نموذجاً، مجلة الجمعية العلمية الايرانية للغة العربية وآدابها العدد السادس عشر ٢٠١٠م، ص / ٢٠.

الشديدة للقرآن الكريم والفضل ما شهد به الأعداء، ومن هؤلاء الأعداء الوليد بن المغيرة الذي وصف القرآن بعبارات موجزة: «والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن؛ إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلى عليه»[٤٤] فعلى الرغم من عداوته الشديدة للإسلام أنطقه الله بالحق، لقد تحدى الله تعالى كفار قريش وأهل الفصاحة والبلاغة: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[٤٥] لقد وقر الإيمان في قلب كعب وصدقت به جوارحه ونطق به لسانه وكان التناص مع لفظ الشهادتين في قوله:

شَهِدْنا بـأَنَّ الله لا رَبَّ غَـيرهُ وأَنَّ رسـولَ اللهِ بالحقِّ ظَاهرُ[٤٦]

وَمَنَحَ النص القرآني الشعر بُعدا جديدا؛ إذ وضح معالم العقيدة التي تتلخص في الوحدانية، والإقرار بالعبودية، فقوله: «ليس له شريك» تناص مع قوله تعالى: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ وَ بِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[٤٧] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[٤٨]» ولعل مشكلة التعبير هي التي تحمل الشعراء على التفتيش عن عبارات جديدة غير مستهلكة تستطيع أن تنقل أكبر قدر ممكن من المعاناة والإحساس، وتدفعهم إلى استعارة لغة دينية وآيات قرآنية، وتضمين معاني الوحي بلغة تحاكيه وصياغة تؤاخيه وإن لم تبلغ شأوه»[٤٩] لذلك أصبح الشاعر يصوغ ما ورد في القرآن الكريم من مفردات،

٤٤- النيسابوري، أبو الحسن أحمد بن محمد: أساب النزول، شرح وتحقيق رضوان جامع رضوان، مكتبة الإيمان المنصورة الأزهر مصر، ١٩٩٦م،ص / ٢٨٠.
٤٥- سورة البقرة آية / ٢٣.
٤٦- مراد، مجيد: ديوان كعب بن مالك الأنصاري، دار صادر للطباعة والنشر بيروت لبنان ط١، ١٩٩٧م، ص / ٤٧.
٤٧- الآيات التي تتحدث عن الشرك تزيد عن مئة وسبع وستين آية (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم).
٤٨- سورة آل عمران آية / ٦٨.
٤٩- جيدة، عبد المجيد: الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، مؤسسة نوفل بيروت ط١، ١٩٨٠م، ص / ٦٦.

ومعانٍ، ودلالات بحسب رؤيته الخاصة، ومن اقتباسه من مفردات القرآن الكريم فائيته التي يقول فيها:

نُطِيعُ نَبِيَّنَا وَنُطِيعُ رَبًّا هُوَ الرّحمنُ كَان بِنَا رَؤُوفَا[٥٠]

لقد تعددت المفردات القرآنية وأتت متناصة مع قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[٥١] لقد أعجم القرآن الكريم لسان كعب بن مالك، فسخر كل ملكاته في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم، كذلك وظف النصوص القرآنية في هذا المضمار، ويصور في رائيته أذى كفار قريش للرسول صلى الله عليه وسلم، وقد أخبر الله تعالى عنهم ﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾[٥٢] وجاء الاقتباس من الآية الشريفة في قوله:

وكَانَ رَسُولُ اللهِ قَدْ قَالَ أَقْبِلُوا فَولّوا وقَالوا: إنّما أنتَ سَاحرُ[٥٣]

ونلاحظ أن الشاعر لم يقحم هذه التراكيب في النص دون مبرر، بل ارتبطت به ارتباطاً عضويا وأصبحت جزءا منه لا يتجزأ.

لقد أصّل الاقتباس الديني لقضية مهمة؛ وهي نفي الشبهات عن الرسول صلى الله عليه وسلم، مما يؤكد أن العملية تجاوزت حد الاقتباس إلى بيان صدق العقيدة. ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وفاخر بشمائله ووصفه بالنور:

٥٠- ديوان كعب: ص / ٦٨.
٥١- سورة البقرة آية / ٢٠٧.
٥٢- سورة ص آية / ٤.
٥٣- ديوان كعب: ص / ٤.

فِينَا الرسُولُ شِهابٌ ثم يَتْبَعُهُ نُورٌ مُضيءٌ لَهُ فَضْلٌ على الشُهُب[٥٤]

والاقتباس من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۗ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾[٥٥]

وقوله:

ومَواعِظٍ مِنْ رَبِّنا نُهدِي بِها بِلِسانِ أزهرَ طيّبِ الأثْوابِ[٥٦]

وسيطرت الروح الإسلامية على شعر كعب، وارتوت ألفاظه من معين المفردات الشريفة، فعذبت معانيه، وحلت القيم السامية محل العادات القبيحة؛ ومن هذه القيم كان الجهاد، والحث عليه، ولم يكن عرب الجاهلية على علم ودراية بالجهاد وفضله؛ فالمجتمع القبلي كان يومئذ يقوم على مبدأ العصبية، وكان القتل من شريعتهم، وكانوا بين قاتل أو مقتول، وجاء الاقتباس في شعر كعب بن مالك مع الآيات التي أشار ت إلى مشروعية الجهاد، وحكمه، وفضله وأهميته، ودوره في تثبيت دعائم الإسلام لقد تأمل كعب قول الحق عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[٥٧] فكان الاقتباس من هذا الآية الكريمة في فائيته:

لُجَالِدُ مابَقينَا أو تُنيبُوا إلى الإسْلامِ إذْعَانا مُضيفَا

٥٤- المصدر السابق: ص / ٢٥.
٥٥- سورة المائدة آية / ١٥.
٥٦- ديوان كعب: ص / ٢٨.
٥٧- سورة التوبة آية / ١١١.

وما فيها من عذاب، واقتبس الشاعر من القرآن ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾[٦٨] ويظهر الاقتباس من قوله تعالى: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾[٦٩] وفي محور النار يشير إلى أن الكفار في الدرك الأسفل منها، تناصا مع الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[٧٠] بقوله:

أولـئِـكَ لا مَـنْ ثَـوَى مِـنْكُـمُ مِن النَّارِ في الـدَّرَكِ المُـرْتَجِ[٧١]

وأحياناً يضيف الاقتباس من النصوص القرآنية، بعدا إلى الخطاب الشعري لأن: «للكتابة القرآنية خصائص لم تعرف قبل نزول القرآن، و أنها لا تكمن في الكلمات المفردة - في جمال حروفها وأصواتها وأصدائها ولا في معاني الكلمات المفردة، التي هي لها بوضع اللغة، ولا في تركيب الحركات والسكنات، ولا في المقاطع والفواصل، وإنما تكمن هذه الخصائص في النظم والتأليف؛ اللذين يقتضيان الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز؛ فمن هذه يحدث النظم والتأليف، وبها يكونان»[٧٢] ومن ذلك ما ورد في مرثيته للرسول صلى الله عليه وسلم:

فَـأَنْـقَـذَنَـا اللهُ في نُـورِهِ ونَجَّـى بِرَحْمتِهِ مِـنْ لَـظَـى[٧٣]

ويكشف هذا الخطاب الشعري أن التناصّ مع قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[٧٤]، وكذلك مع قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[٧٥] فقد وظف كعب هذه المفردات وجعلها جزءا لا يتجزأ من شعره، وفي مقام التهديد

٦٨- سورة المعارج آية / ١٥.
٦٩- سورة الكهف آية / ٩٦.
٧٠- سورة النساء آية / ١٤٥.
٧١- ديوان كعب: ص / ٣٤.
٧٢- الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص / ٣٠٠.
٧٣- ديوان كعب: ص / ١١١.
٧٤- سورة فاطر آية / ٢٤.
٧٥- سورة الفرقان آية ٥٦.

والوعيد نسمعه يردد:

لأمْـرِ اللهِ والإسْـلامِ حتَّى يَقُومَ الدّينُ مُعْتدلا حَنِيفَا[٧٦]

وقوله: الدين حنيفا تناص مع الآية الكريمة ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٧٧]

ويتجلى الاقتباس من الآيات القرآنية في مضمار الرثاء أو البكاء على شهداء المسلمين، الذين ماتوا في سبيل الله، وأيضا الفخر بالبطولات التي حققها المسلمون في ساحة الحرب، والحديث عن النعيم الدائم الذي وعدهم الله تعالى به، وكان هذا النوع من الشعر؛ أي شعر الحماسة من أهم العوامل التي استنهضت همم المجاهدين، وحفزتهم للثبات في ساحة الحرب، وعدم الفرار من مواجهة الكفار؛ بل يتخذون من سياسة الكر والفر آلية لهزيمة الكفار، ومن ذلك قول كعب في رائيته:

فَـلَـمَّ لَقِيْنَـاهُمْ وكـلُّ مُجَـاهِـدٌ لأصْحَابِهِ مُسْتَبْسِلُ النَّفْسِ صَابِرُ[٧٨]

والرثاء عند كعب بن مالك يختلف عما كان عليه الرثاء في الجاهلية؛ إذ كان يشير إلى مناقب المرثي وما يتمتع به من فضائل ومكارم بحسب أعرافهم وعاداتهم وتقاليدهم، و بروح المسلم المؤمن بقضاء الله وقدره، عدد كعب مناقب الشهداء وفضائلهم الدينية مع إيمانه التام بأهمية الجهاد في حياة المسلم، والغاية التي يجاهد من أجلها، وقيمة الشهادة، وما أعده الله تعالى للشهداء و امتاح كعب بن مالك مفرداته من القرآن الكريم في رثائه لشهداء المسلمين؛ مما أضفى على النص هالة من القدسية، سلبت القلوب وسحرت العقول، وهكذا تفجرت المشاعر وفاضت،

٧٦- ديوان كعب: ص / ٦٩.
٧٧- سورة الروم آية ٣٠.
٧٨- ديوان كعب: ص / ٤٧.

وتهيأت لإدراك حقيقة تشير إلى جمال التناص الذي يأتي عفو الخاطر، ودوره في غرس بعض الفسائل الجديدة والجميلة في فضاء النص؛ قد يؤهله لصياغة بعض محاور الإبداع ؛ مما يؤدي إلى النهوض بتجربة الشاعر الشعرية.

ومن الفضائل التي أشار إليها كعب صبر المسلم في حالة وقوع المصيبة، كما ورد في نونيته التي بكى فيها الرسول صلى الله عليه وسلم:

ألا أَنْعِي النَّبِيَّ إلى مَنْ هَدَى مِنْ الجِنِ لَيْلَةَ إذْ تَسْمَعُونا[٧٩]

اقتباس من الآية الكريمة من سورة الجن﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾[٨٠].

وفخر كعب بن مالك يصب في بحر من المكارم والفضائل، فعصبية القبيلة زالت بزوال الكفر والشرك من نفوس الشعراء الذين آمنوا برسالة المصطفى صلى الله عليه وسلم، وحلت الأمة محل القبيلة، وأصبح فخرهم بالقيم الإسلامية، لقد وظف كعب الاقتباس توظيفا جميلا، واستثمر طاقاته الفنية، ففتح له آفاق التفكير والتأمل في أسماء الله الحسنى ومن صور الاقتباس من أسماء الله الحسنى قوله:

أَبْقَى لَنَا حَدَثُ الحُروبِ بَقِيَّةً مِنْ خَيْرِ نِحْلَةِ رَبَّنا الوَهَّابِ[٨١]

ومن محاور الاقتباس الديني في شعر كعب بن مالك، الاقتباس من قصص الأنبياء والمرسلين؛ واستدعاء قصص الأنبياء والمرسلين في خطابه الشعري يرتبط ارتباطا وثيقا بصدق إيمانه، فالتصديق بالأنبياء والمرسلين من حقيقة الإيمان، وبالتالي شكلت هذه الشخصيات نقطة ارتكاز مهمة؛ لأنها تحمل العديد من الدلالات الايجابية في تاريخ البشرية، فضلاً عن ذلك استدعاء الأنبياء والرسل

٧٩- ديوان كعب: ص/ ٦٤.
٨٠- سورة الجن آية/ ١.
٨١- ديوان كعب: ص/ ٢٦.

وقد يتطلب وجود شخصيات أخرى مع أهمية الترابط بين الشخصيتين؛ أي الرئيسية التي تشكل قطب الرحى، والشخصيات المساعدة، ويحاول أن يعبر عنها بلغة القوافي، لقد وظّف كعب بن مالك آلية استدعاء بعض شخصيات القرآن من أنبياء ومرسلين، وعلى سبيل المثال استدعى شخصية النبي موسى والنبي سليمان عليهما السلام من خلال المعجزات الإلهية التي خصهما الله تعالى بها، وجاء الاقتباس مندمجا في البنية التركيبية للنص؛ مما أكسبه إيحاءات جديدة، وإضافات لطيفة، فالاقتباس يحمل القارئ إلى أجواء تلك القصص؛ لأن قصص الأنبياء والمرسلين لا يراد بها مجرد السرد التاريخي؛ لكن الغاية منها العظة والعبرة، ومن ذلك قوله:

فإنْ يَكُ مُوسَى كَلَّم الله جَهْرَةً عَلَى جَبَلِ الطُّورِ المُنِيفِ المُعَظَّمِ
وإنْ تَكُ نَمْلُ البَرِّ بالوَهْمِ كَلَّمتْ سُليمانَ ذَا المُلكِ الذي لَيس بالعَمي[٨٢]

وجاء الاقتباس من الآية الكريمة ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾[٨٣] وعجز البيت اقتباس من قوله تعالى في سورة طه ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾[٨٤] وفي البيت الثاني اقتباس من قصة سليمان عليه السلام التي وردت في سورة النمل: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾[٨٥].

٨٢- المصدر السابق: ص/ ٩٥ ٩٦.
٨٣- سورة النساء آية/ ١٦٤.
٨٤- سورة طه آية/ ١١-١٢.
٨٥- سورة النمل آية/ ١٧-١٩.

لقد ورد في القرآن الكريم ذكر الأصنام التي كان يعبدها العرب في جاهليتهم؛ ومن هذه الأصنام اللات والعزى، وكان الاقتباس من الآية ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾[٨٦] في قول كعب بن مالك:

وتُنْسَى الـلاّتُ والـعُـزَّى وَوُدّ ونَسْلُبُها القَلائِدَ والشُّنُوفا[٨٧]

وفي مضمار الإشارة إلى عون الله تعالى ونصره يقول كعب:

إذَا غَايَظُونَا في مُقَامٍ أَعَانَنَا على غَيْظِهِمْ نَصْرٌ مِن اللهِ أوسعُ[٨٨]

وكان الاقتباس من الآية الكريمة من سورة محمد ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[٨٩]

ونخلص إلى أن اقتباس خطاب كعب بن مالك الشعري من القرآن هيأ له أسباب التمكن من العلوم والمعارف؛ فـ: «للاقتباس القرآني ثراؤه واتساعه؛ إذ يجد الشاعر فيه كل ما قد يحتاجه من رموز تعبر عما يريد من قضايا من غير حاجة إلى الشرح والتفصيل، فهو مادة راسخة في الذاكرة الجمعية لعامة المسلمين بكل ما يحويه من قصص وعبر»[٩٠] فقداستمد منه القوة المادية والمعنوية، وصار

٨٦- سورة النجم آية ١٩.

٨٧- من أصنامهم أيضا اللات: وهي صخرة بيضاء مربعة، بنت ثقيف عليها بيتا يحجّون له. أما العزى فكانت نخلات في الطريق بين مكة والعراق، وكانوا قد بنوا عليها بيتا يطوفون حوله، وقد عبد العرب العزى وتسمّوا باسمها مثل عبد العزى بن عبد المطلب، وقد أقسم العرب بالعزى، ولها يقول درهم بن زيد الأوسي: إني ورب العزى السعيدة والله الذي دون بيته سرف.(العلي، جواد: المفصل في تاريخ العرب، ج ٦ / ٢٢٨ و ٢٤٢). وود تمثال لرجل، قد ذبر عليه حلتان، متزر بحلة، مرتد أخرى، عليه سيف قد تقلده، وقد تنكب قوسا، وبين يديه حربة فيها لواء، ووفضة فيها نبل (الكلبي، هشام بن محمد السائب: كتاب الأصنام، تحقيق أحمد زكي باشا، مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة ط٢، ١٩٢٤م.، ٥٠-٥٦).

٨٨- ديوان كعب: ص / ٦٣.

٨٩- سورة محمد آية / ٧.

٩٠- البادي، حصة: التناص في الشعر الحديث البرغوثي نموذجا، دار كنوز المعرفة الأردن ط١، ٢٠٠٩، ص / ٤١.

مصدر فصاحته وبلاغته ومصداقيته، والملهم الأول له، وجاء اقتباسه من القرآن الكريم من خلال المفردات والتراكيب أو استدعاء قصص الأنبياء والمرسلين، ولم يأت اقتباسه من القرآن الكريم منفصلاً عن بنية النص الشعري، فالقرآن الكريم فضلاً عن كونه المصدر الأول للتشريع الإسلامي، والمصدر الأول للغة العربية؛ فهو الملهم الأول لكل شاعر شرح الله تعالى صدره للإسلام، فصار كل شاعر منهم يرتقي بحسه الأدبي، وذوقه الفني؛ بفضل القرآن الكريم، وهكذا أقام القرآن الكريم عمود الأدب؛ ومما لاشك فيه أن الإفراط في التناص أو الاقتباس، أو محاول إقحام النصوص القرآنية إقحاما في النص الشعري يؤدي إلى نتائج عكسية؛ إذ يضعف النص؛ لأن الاقتباس لم يقم بمهمته بوصفه آلية فنية من آليات التوضيح أو التأكيد.

٢- الاقتباس من السنة النبوية الشريفة

السنة النبوية الشريفة هي المصدر الثاني لإلهام الشاعر كعب بن مالك، وحسبه من الفخر أنه صاحب الرسول صلى الله عليه وسلم، وتتلمذ على يديه، فشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تشكل محاور لامتناهية لكعب، وجسدت له كل قيم الإسلام، وملأ حب المصطفى صلى الله عليه وسلم قلبه، وشغل منه السمع والبصر، كما شغل منه القلب والفؤاد، ووقف كعب بن مالك مع الشعراء الذين منَّ الله تعالى عليهم بنعمة الإسلام في الصفوف الأولى يدافعون عن الإسلام، ويذبون عن محارمه، ويمدحون شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم، بل وأنى لهم مدح من مدحه الله تعالى في كتابه العزيز وجعل مدحه قرآنا يتلى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[٩١] وجاء أجمل اقتباس من القرآن الكريم مدح

٩١- سورة القلم آية / ٤.

زوجه الحميراء عائشة أم المؤمنين: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ »[٩٢].

أحب كعب الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان حبه من موجبات الطاعة لله تعالى على المسلم، وأشار إليها صلى الله عليه وسلم في قوله: « فَوَالَّذي نَفْسي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِده وَوَلَده »[٩٣] وعن أنس قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِده وَوَلَدِهِ وَالنّاسِ أَجْمَعِينَ »[٩٤] وجاء التناص مع الحديث النبوي الشريف، في فخر كعب بحبه وطاعته للرسول صلى الله عليه وسلم:

وَفِينَا رَسُولُ اللهِ نَتْبَعُ أَمْرَهُ ... إِذَا قَالَ فِينَا القَولَ لا نَتَطَلَّعُ

تَدَلَّى عليهِ الرّوحُ مِنْ عِند رَبّهِ ... يُنزلُ من جَوِّ السَّماءِ ويُرفَعُ

وقالَ رَسُولُ اللهِ لمّا بَدوا لَنا ... إذا مَا اشْتَهَى أَنا نُطِيعُ ونَسْمعُ[٩٥]

كذلك في محور طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم جاء الاقتباس من الحديث السابق في بائيته حيث يقول:

بَدَا لَنَا فاتَّبَعْنَاه نُصَدِّقُهُ ... وَكَذَّبُوه فَكُنَّا أَسْعَدَ العَربِ[٩٦]

وفي مقام التهديد والوعيد يقول:

فَبُعْدا وسُحْقا للنَّضِير ومِثْلُها ... إن أَعْقَبَ فَتْحٌ أَوْ إن الله أَعْقَبَا[٩٧]

٩٢- صحيح مسلم: كتاب الصلاة، باب جامع الصلاة الليل ومن نام عنه أو مرض حديث رقم٦٤٦ ج١ / ٥١٢.
٩٣- صحيح البخاري. كتاب الإيمان. باب حب الرسول صلى الله عليه وسلم من الإيمان ١ / ١٠. حديث رقم ٦٧.
٩٤- المصدر نفسه: كتاب الإيمان ١ / ١٠. حديث رقم ١.
٩٥- ديوان كعب: ص / ٦٠.
٩٦- المصدر نفسه: ص / ٢٥.
٩٧- المصدر نفسه: ص / ٢٣.

وكان الاقتباس من السنة النبوية الشريفة في حديث الحوض، قال صلى الله عليه وسلم: «إِنِّي فَرَطُكُم عَلَى الحَوض مَن مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ، وَمَن شَرِبَ لَم يَظمَأ أَبَدًا، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقوَامٌ أَعرِفُهُم وَيَعرِفُونني، ثُمَّ يُحَالُ بَينِي وَبَينَهُم، فَأَقُولُ: إِنَّهُم مِنِّي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدرِي مَا أَحدَثُوا بَعدَكَ، فَأَقُولُ: سُحقًا، سُحقًا، لِمَن غَيَّرَ بَعدِي».[٩٨]

ووعى كعب معنى قوله صلى عليه وسلم: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»[٩٩] وجاء التناص معه في لاميته التي يقول فيها:

إِنْ تَقْتُلونَا فَدِينُ الحقِّ فِطْرَتُنَا ... والقَتْلُ في الحقِّ عِنْدَ اللهِ تَفْضِيلُ[١٠٠]

ومن جانب آخر نلاحظ الاقتباس من معجزاته صلى الله عليه وسلم؛ وذلك للدلالة على مدى استجابة كل ما في الكون للرسالة المحمدية من ذلك:

فَهَذا نَبِيُّ اللهِ أَحْمدُ سَبَّحتْ ... صِغَارُ الحَصَى في كَفِّهِ بالتَّرَنُّمِ[١٠١]

٩٨- صحيح البخاري: باب الفتن، ما جاء في قول الله تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين...، رقم حديث ٦٥٢٨
٩٩- المصدر نفسه: الجزء الثاني، كتاب ٢٣، حديث رقم ٤٤١.
١٠٠- ديوان كعب: ص / ٨٤.
١٠١- ديوان كعب: ص / ٩٦. وفيما يرويه ابن مسعود عن هذه المعجزة قوله:«لَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَلُ» صحيح البخاري: كتاب المناقب حديث: ٣٥٧٩. وقال ابن كثير: «ولا شك أن صدورَ التسبيح من الحصى الصغار الصمّ التي لا تجاويف فيها؛ أعجب من صدور ذلك من الجبال؛ لما فيها من التجاويف والكهوف، فإنها وما شاكلها تردِّدُ صدى الأصوات العالية غالبا.. ولكن من غير تسبيح؛ فإن ذلك (أي ترددَها بالتسبيح) من معجزات داود عليه السلام، ومع هذا كان تسبيح الحصى في كف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان أعجب»(ابن كثير: البداية والنهاية، ج٦ / ٢٨٦).

ومن اقتباسه من معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم قوله:

فَقَدْ كَلَّمَ اللهُ النبيَّ مُحمَّدا عَلى المَوْضِعِ الأعْلَى الرَّفِيعِ المُسوَّمِ[١٠٢]

الاقتباس من معنى الآية: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾[١٠٣].

ومما سبق نستخلص أن كعبا كان شديد الاعتزاز بعقيدته، وتجلى حب للرسول صلى الله عليه وسلم في كل حركاته وسكناته، وقد نال شرف التعلم على يديه، وكان دائم الفخر بإرشاداته وتوجيهاته له: «ما أعان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا في شعره غيري»[١٠٤] وخلاصة القول أن الاقتباس الديني في شعر كعب بن مالك كان متنوعا، وأحيانا يكون الاقتباس من المفردة، أو المعنى أو العبارة، وتدثرت النصوص بالثقافة الإسلامية، وتفاعلت هذه المحاور فيما بينها، وتضافرت وتعدد أشكال الاقتباس الديني في شعر كعب بن مالك وسمت بخطابه الشعري الذي حقق الأهداف المنشودة منه.

٣- التناصّ الأدبي

التناصّ الأدبي في أبسط معانيه يعني أن يستحضر الشاعر أي خطاب شعري من شاعر سابق، ويصوغ خطابا شعريا جديدا تتوفر فيه عناصر التفرد والإبداع، وذلك من خلال الانسجام بين النصين؛ أي الغائب والحاضر، مع تجسيد رؤى الشاعر مع ما يعرضه من قضايا وأفكار، ولابد من تحاشي التكرار والاجترار، وأن تخرج كل آليات النص الجديد وهي تموج بالحياة والحركة، بعد أن تزيت

١٠٢- ديوان كعب: ص / ٩٦.
١٠٣- سورة النجم آية / ١٣-١٨.
١٠٤- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (٢٨٥هـ): كتاب الفاضل:تحقيق عبد العزيز الميمني، دار الكتب المصرية ط٢، ١٩٩٥م،ص / ١٢.

بزي العصر، وواكبت التحديات التي قد تطرأ على مختلف مناحي الحياة؛ ولابد من تناول النص برؤى معاصرة لأن: «شعرنا العربي لن يستطيع أن يثبت وجوده، ويحقق أصالته، إلا إذا وقف على أرض صلبة من صلته بتراثه وارتباطه بماضيه، وأيقن أن انبتات الشعر عن تراثه إنما هو حكم على ذلك الشعر بالذبول ثم الموت»[١٠٥] و التناص الأدبي يستند على الماضي، ومنه ينطلق إلى آفاق الإبداع والابتكار. كذلك عندما يستدعي النص الشعري الجديد ما طُرح من نصوص في الماضي تتحقق العديد من الفوائد؛ منها بث الحياة في التجارب الحياتية القديمة بحيث تثري الحاضر، ويستفاد منها في المستقبل.

ومن فوائد التناص الأدبي السمو بلغة الخطاب الشعري؛ لأن النص الحاضر يقوم باستثمار كل محاور النص الغائب؛ من لغة ومعان، وصور، وتشبيهات؛ ثم يسخرها بفعالية لوظيفة معنوية أو فنية أو أسلوبية؛ بحيث تفتح آفاق الجمال والإبداع في النص الحاضر، ويرى صلاح عبد الصبور أن: «للنص الغائب أو التراث الشعري نفوذا و سيطرة لا يكاد يفلت منها أي شاعر»[١٠٦] بينما ذهب عبد الوهاب البياتي إلى أن التراث: «يمثل حقلا معرفيا خصبا يحتاج إلى نظر نقدي لاختيار العناصر الحية منه، والقادرة على الديمومة والتي تصلح أن تكون شواهد قادرة على التجدد والتموضع في نصوص جديدة، وتستعصي على الاستهلاك الآني؛ لما تختزنه من ظلال وثراء يتأبى على الاندثار والزوال»[١٠٧].

لقد جند الشعراء الذين التفوا حول المصطفى صلى الله عليه وسلم ألسنتهم وحشدوا كل طاقاتهم الفنية للدفاع عن حياض الإسلام، والذّبّ عن محارمه،

١٠٥- زايد عشري: استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي القاهرة ١٩٤٨ م، ص / ٥٨.
١٠٦- عبد الصبور، صلاح: قراءة جديدة لشعرنا القديم، بيروت لبنان، د.ت، ص / ١٨ ١٩.
١٠٧- البياتي، عبد الوهاب: الشعر العربي المعاصر والتراث، مجلة فصول، القاهرة، العدد الرابع ١٩٨١م، ج١ / ٢٢.

ومدح المصطفى صلى الله عليه وسلم، فضلا عن شحذهم لهمم المجاهدين وحثهم على الجهاد في سبيل الله؛ حتى يتمكنوا من دحر أعداء الإسلام، ومما ساعد الشعراء على القيام بهذه المهمة العظيمة ما ورد في القرآن الكريم من مدح لكل شاعر التزم بحدود الله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[١٠٨] كذلك تشجيع الرسول صلى الله عليه وسلم لهم، فضلا عن تحفيزه لهم ماديا ومعنويا، وتناصّ شعر كعب بن مالك مع التراث الأدبي، مكنه من صياغة الخطاب الشعري بروح إسلامية، لأنه استمد أفضل ما في التراث الأدبي، لصياغة خطاب شعري يترجم سماحة الإسلام وقيمه الفاضلة.

استدعى كعب بن مالك موقف الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم التغلبي وهو يشيد بمفاخر قبيلته في عزة وإباء، في حضرة الملك عمرو بن هند، ووظف كعب ما دار في هذا الموقف في خطابه الشعري، وكان التناصّ مع معلقته؛ حيث يقول فيها:

أَبَا هِنْدٍ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْنَا وَأَنْظِرْنَا نُخَبِّرْكَ اليَقِيْنَا

وَرِثْنَاهُنَّ عَنْ آبَاءِ صِدْقٍ وَنُوْرِثُهَا إِذَا مِتْنَا بَنِيْنَا[١٠٩]

وجاء تناصّ كعب مع المعلقة لكن من منظور إسلامي يتناسب مع واقع الحال:

فَإِنْ تَسْأَلِي ثُمْ لا تُكذِبِي يُخَبِّرْكِ مَنْ قَدْ سَأَلتِ اليَقِينَا

١٠٨- سورة الشعراء / ٢٢٤-٢٢٧.

١٠٩- ابن كلثوم: عمرو: ديوان عمرو بن كلثوم، جمع وتحقيق إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، القاهرة ط١، ١٩٩١م، ص / ٧٠ ٨٥.

وَعَلَّمَنَا الضَّرْبَ آبَاؤُنَا وَسَوْفَ نُعَلِّمُ أَيْضاً بَنِينا[١١٠]

لقد رفد التراث الأدبي كعب بن مالك بمعارف متباينة؛ لأن الشاعر أدرك كنهه، وغاص في دواخله، وأصبح جزءا من مخزونه الثقافي والفكري، فوظف كعب آلياته برؤى إسلامية، ومعارف دينية؛ فالتراث يمثل: «حقلا معرفيا خصبا يحتاج إلى نظر نقدي لاختيار العناصر الحية منه، والقادرة على الديمومة والتي تصلح أن تكون شواهد قادرة على التجدد والتموضع في نصوص جديدة، وتستعصي على الاستهلاك الآني لما تختزنه من ظلال وثراء يتأبى على الاندثار والزوال»[١١١] ووصف زهير بن أبي سلمى في معلقته أطلال محبوبته في قوله:

بِها العِينُ وَالْآرَامُ يَمشِينَ خِلفَةً وَأَطْلاؤُها يَنهَضْنَ مِن كُلِّ مَجْثِمِ[١١٢]

لقد أدت وظيفة فعالة في تشكيل لوحة زهير الفنية، إذ استمد منها صوره وتشبيهاته في وصف ديار محبوبته التي دُرست، ووظف كعب ما جادت به قريحة زهير واستثمره في عينيته وكان التناص في قوله:

بِه العِينُ والآرَامُ يَمْشِينَ خِلْفةً وبَيْضُ نَعَامٍ قَيْضُه يَتَقَلّعُ[١١٣]

وكان تناصّ الشاعر كعب بن مالك المجاهد في سبيل الله، مع الشاعر المقاتل عنترة بن شداد فارس بني عبس، وكانت فروسية عنترة وشجاعته من المحاور التي استوقفت كعبا، وأعجب بقدراته الحربية، وملكاته الأدبية، وهو القائل:

عَجِبَتْ عُبَيْلَةُ مِنْ فَتًى مُتَبَذِّلٍ عَارِي الأَشَاجِعِ شَاحِبٍ كَالمنْصُلِ[١١٤]

١١٠- ديوان كعب: ص / ١٠٢ ١٠٣.

١١١- اليافي الشاعر العربي المعاصر والتراث، ج١ / ٢٢.

١١٢- ديوان زهير بن أبي سلمى: شرح حمدو طماس، دار المعرفة بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٥م، ص / ٦٥.

١١٣- ديوان كعب: ص / ٥٨.

١١٤- ديوان عنترة: مطبعة الآداب بيروت ١٨٩٣م، ص / ٦٨.

وتناصت دالية كعب مع عنترة في قوله:

وَنَحْنُ وَرَدْنَا خَيْبرا وفُرُوضَهُ بكلِّ فَتىً عَارِي الأَشَاجِعِ مِـذْوَدِ[115]

ولقد تم هذا الامتصاص لنص عنترة وهو النص السابق وتم تحويله الى نص لاحق (نص كعب)، وفسرت جوليا كرستيفا هذا النوع من التناصّ بقولها «ينبني مثل فسيفساء من الاستشهادات، وكل نصّ إنما هو امتصاص وتحويل لنصّ آخر»[116].

وقد يكون التناصّ الأدبي مع اللفظ، وأهمية اللفظ لخصها أبو هلال العسكري في قوله: «المعاني مشتركة بين العقلاء فربما وقع المعنى الجيد للسوقي، والنبطي والزنجي، وإنما تتفاضل الناس في الألفاظ ورصفها ونظمها؛ وقد يقع للمتأخر معنى سبق عليه المتقدم من غير أن يلم به، ولكن كما وقع للأول وقع للآخر».[117] ومن التناصّ الأدبي التناص مع دالية أبي سفيان التي أنشدها بغرض الاعتذار عما بدر منه أيام ضلالته وبعدما شرح الله تعالى صدره للإسلام أنشد يقول:[118]

لَعَمرُكَ إنّي يَـوْمَ أَحْمِلُ رَايَـةً لِتَغْلِبَ خَيْلَ اللاّتِ خَيْلَ مُحَمَّدِ

وجاء التناصّ في قوله: «وتُنسى اللات والعزى وود»[119]

ومن أثر المخزون الثقافي في شعر كعب فخره في داليته بيوم خيبر؛ حيث افتخر بالفضائل التي كانوا يفخرون بها في الجاهلية؛ أي يتحول النصّ إلى تناصّ مع القيم والأعراف الجاهلية؛ التي أقرها الإسلام، ومنها الشجاعة، والكرم،

115- ديوان كعب: ص / ٤١.
116- جوليا كريستيفا: السيميولوجيا، باريس ١٩٦٩م، ص / ٨٤.
117- العسكري، أبو هلال: كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق علي بن محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية القاهرة، د. ت، ص / ٢٠٢.
118- الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك(تاريخ الطبري)، دار الكتب العلمية بيروت ط١ ١٤٠٧هـ، ج٢ / ١٥٦
119- ديوان كعب: ص / ٦٩.

والجود؛ و تناولها كعب من منظور إسلامي:

جوادٍلَدَى الغَايَاتِ لا وَاهِنِ القُوى جَريءٍ عَلَى الأَعْدَاءِ في كُلِّ مَشْهدِ

عَظِيمِ رَمَادِ القِدْرِ في كُلِّ شَتْوَةٍ ضَـرُوبٍ بِنَصْلِ المَشْرَفيِّ المهنَّدِ[120]

وفيه تناصّ مع قول الخنساء:

طَـويلُ النِّـجادِ رَفِـيعُ العِـمَادِ كَثيرُ الـرَّمَـادِ إذا مَـا شَـتا[121]

وكان كعب ملما بالموروث الثقافي، لذا عيّر قريشا بما كان يؤلمها؛ وهو أكلها للسخينة، وذكر صاحب خزانة الأدب أن: «العرب أطلقت اسم سخينة على قريش؛ لأكلها السخينة، وكان ذلك من المناقص التي تعير بها كما ذكر خداش بن كعب»[122]

يَا شِـدَّةً مَـا شَدَدْنا غَـيْرَ كَـاذِبَةٍ عَلَى سخينةَ لَوْلَا اللَّيْلُ وَالحَرَمُ

وكان التناصّ الأدبيّ مع ميمية خداش في بائية كعب حيث عير قريش بما كانت تتأذى منه وهو أكلها للسخينة.

جَـاءتْ سَخينَةُ كَي تُغالِب رَبَّها فَلْيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الـغَـلّابِ[123]

والسخينة طعام من اللبن أغلظ من الحساء[124] وقد عيرت به قريش حتى سموا سخينة.

120- المصدر السابق:٤١.
121- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (٢٨٥هـ) الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أبو الفضل دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، ١٩٩٧م، ج ١ / ٣١٤.
122- البغدادي، عبد القادر: خزانة الأدب، ج٢ / ٤٣٦. وقال صاحب العمدة: " إن أول من لقب قريشاً على شرفها، وبعد ذكرها في العرب سخينة لحساء كانت تتخذه في الجاهلية عند اشتداد الزمان(ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر: ج٢ / ٤٣٦)
123- ديوان كعب: ص / ٢٨.
124- طعام يتخذ من الدقيق دون العصيدة في الرقة وفوقَ الحَساء وإنما كانوا يأْكلون السَّخِينة والنَّفِيتَة في شدة الدهر وغلاء السعر وعجف المالِ(لسان العرب: ابن منظور مادة سخن).

ومن صور التناصّ الشكلي استخدام كعب بن مالك لجملة من لامية حسان بن ثابت في مدح الغساسنة والتي يقول فيها:

بِيضُ الوُجُوه كَرِيمَةٌ أحْسَابُهُم شُمُّ الأُنُوفِ مَن الطِّرَازِ الأَوَّلِ[١٢٥]

حيث تناصت جملة بيض الوجوه في لامية كعب مع جملة حسان في صدر البيت. وقد وظف كعب هذا التناص توظيفا جديدا حيث بكى على شهداء مؤتة وعدَّد مناقبهم.

بِيضُ الوُجُوهِ تَرَى بُطُونَ أَكُفِّهِمْ تَنْدَى إذا اعتَذرَ الزّمانُ المُمْحِلُ[١٢٦]

لقد ذكر حسان بن ثابت في همزيتيه كيفية دخول الخيل إلى مكة من موضع جبل كداء حيث يقول:

عَدِمْنَا خَيْلَنا، إنْ لمْ تَرَوْهَا تُثِيرُ النَّقْعَ، مَوْعِدُها كَدَاءُ[١٢٧]

وكان التناص مع همزية حسان في مخاطبته لأبي سفيان، قبل أن يشرح الله تعالى صدره للإسلام:

فلا تَعْجَلْ أَبَا سُفْيانَ وارْقُبْ جِيادَ اللهِ تَطْلعُ مِنْ كَداء[١٢٨]

وذكر كعب بن مالك في داليته:

يُنازِعْنَ الأعِنَّةَ مُصْغياتٍ إذَا نَادى إلى الفَزعِ المُنَادِي[١٢٩]

١٢٥- حسان: ديوان حسان بن ثابت: شرح وتقديم عبدأ. مهنا، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط٢، ١٩٩٤م ص / ١٨٤.
١٢٦- ديوان كعب: ص / ٨٩.
١٢٧- ديوان حسان بن ثابت: ص / ١٨.
١٢٨- ديوان كعب: ص / ٢١.
١٢٩- المصدر نفسه: ص / ٤٠.

وجاء التناص مع قول حسان:

يُبَارِينَ الأَعِنَّةَ مُصْعِدَاتٍ عَلَى أكْتَافِهَا الأسَلُ الظِّماءُ[١٣٠]

وقد يكون التناصّ الأدبي مع المعنى، وفيه يوظف الشاعر معاني النص الغائب في شعره، ويستدعيها، ليستلهم منها معاني جديدة تفتح أمامه آفاقا من الإبداع، بل تصبح مصدرا من مصادر إلهامه، وفي هذا المضمار ذكر الجاحظ: «لا يُعلم في الأرض شاعر تَقدَّم في تشبيه مصيب تام، وفي معنى غريب عجيب، أو معنى شريف كريم، أو في بديع مُخترَع، إلا وكلُّ من جاء من الشعراء من بعده أو معه، إنْ هو لم يعدُ على لفظه، فيَسرق بعضه، أو يدَّعيه بأسْره، فإنه لا يدع أن يستعين بالمعنى، ويجعل نفسه شريكا فيه، كالمعنى الذي تتنازَعه الشعراء، فتختلف ألفاظهم وأعاريض أشعارهم، ولا يكون أحدٌ منهم أحقَّ بذلك المعنى من صاحبه، أو لعلَّه أن يجحد أنه سمع بذلك المعنى قط، وقال: إنه خطر على بالي من غير سماع كما خطر على بالِ الأول». [١٣١]

والمتأمل للتناصّ الأدبي في شعر كعب بن مالك، يلاحظ أنه من المؤشرات الهمة على مدى سعة علم الشاعر، وثقافته، ومعجمه اللغوي، فضلا عن إرثه الأدبي والفكري، وحسبه من الفخر والشرف المدرسة العظيمة التي تخرج فيها وهي مدرسة المصطفى صلى الله عليه وسلم؛ التي ضمت أشرف العلوم وهي علوم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

٤- التناصّ مع التاريخ والتراث

التاريخ وعاء يحمل الماضي بين جنباته؛ ولابد من فهم محاوره، لتوظيفها لصياغة حاضر أفضل، ثم استثمارها لاستشراف مستقبل واعد، وعرفه السخاوي

١٣٠- ديوان حسان: ص / ١٩.
١٣١- الجاحظ: الحيوان، ج٣ / ٣١٢.

(ت ٩٠٢هـ): «فن يُبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين؛ بل عما كان في العالم»[١٣٢] والتناصّ التاريخي يعني توظيف النصوص التاريخية في النص الأدبي، فيسمو بثقافة النص الأدبي؛ لأن حقل التاريخ يحتضن حزمة من العلوم والمعارف، فضلا عن الحراك الاجتماعي، والسياسي، والفكري والثقافي وغيرها من الإنجازات التي دفعت بمسيرة البشرية إلى الأمام؛ فضلا عن العظة والعبرة، والتاريخ الإسلامي يحتضن التراث الإسلامي، والأحداث التاريخية والمواقع المرتبطة بها، أو الأماكن التي كانت مسرحا للأحداث، وعلى دَارِسه أن يُمعن النظر فيه، ويغوص في دواخله؛ لأن العبرة بما يحمله من مضمون، وأشار ابن خلدون إلى أهمية ما يكنزه في باطنه: «إذ هو في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام و الدول، و السوابق من القرون الأول...، و في باطنه نظر و تحقيق، و تعليل للكائنات، و مباديها دقيق وعلم بكيفية الوقائع و أسبابها عميق؛ فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق و جدير بأن يعد في علومها»[١٣٣] لقد استدعى كعب بن مالك الأحداث التاريخية، والشخصيات، التي أدت وظيفة فعالة في تشكيل هذه الأحداث، ومن ثم استثمر ما تحمله بين طياتها من رؤى جديدة؛ حتى تستنهض همم الإبداع بدواخله.

والتّناصّ التّاريخيّ من أهمّ المصادر التي ترفد الشاعر بكم هائل من المشاعر والأحاسيس؛ وتجعل النص يقف شامخا معتزا بماضيه وما يحمله من قيم وثوابت راسخة، فضلا عن التأريخ للأحداث وتوثيقها، وذلك من خلال الربط بين عبق الماضي وشذى الحاضر، فالتناصّ مع التاريخ يعني بث الحياة فيما جادت به القرائح البشرية؛ وذلك من منطلق إثبات الحق والاعتراف بالفضل. لقد تعدّدت وتباينت الشخصيات التي استدعاها كعب بن مالك في خطابه الشعري، كذلك اختلفت

١٣٢- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن: الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ أهل التاريخ، تحقيق : المستشرق فرانز روزنثال، ترجمة صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، بيروت ط١، ١٩٨٦م، ص / ١٧.
١٣٣- ابن خلدون، عبد الرحمن: مقدمة ابن خلدون، دار القلم بيروت لبنان ط١، ١٩٧٨م، ص / ١٢.

الطرائق والآليات التي طرح بها خطابه الشعري، والشخصيات التاريخية التي استدعاها كعب في خطابه الشعري كانت قد أدت وظيفة مهمة وبارزة في مسيرة الدعوة الإسلامية، وكان هدف الشاعر من خلال التّناصّ مع التاريخ الإسلامي إماطة اللثام، ونفض الغبار عن المجتمع الذي خرج بفضل الله من الظلمات إلى النور، والوقوف على مدى التحدّيات والصّعاب التي واجهها الإسلام؛ وإن تاريخ الدعوة الإسلامية مشرق مُضيء، ويموج بالحياة والحركة، وبث روح الشعر في الأحداث التاريخية جعل لها حضورا قويا وفعالا:

وَيَومَ بَدْرٍ لَقِينَاكُمْ لَنَا مَدَدٌ ... فيهِ مَعَ النّصْرِ مِيكَالٌ وجِبْرِيلُ[١٣٤]

لقد أراد كعب بن مالك من خلال التناصّ مع التّاريخ أن يكشف حقيقة الضّعف والخوار التي آل إليها أعداء الإسلام:

نَواضِحُ في الحُروبِ مُدَرَّباتٌ ... وخُوصٌ ثُقِّبَتْ مِنْ عَهْدِ عَادِ
رَواكِدُ يَزْخَرُ المُرَّارُ فيها ... فَلَيْسَتْ بالجِمامِ ولا الثِّمادِ
كَأنَّ الغابَ والبَرْدِيَّ فيها ... أجَشُّ إذا تَبَقَّعَ للحَصَادِ
ولَمْ تُجْعَلْ تِجَارَتَنا اشتِرَاء الْـ ... حَمِيرِ لأرْضِ دَوْسٍ أوْ مُرادِ[١٣٥]

لقد امتلك كعب بن مالك العديد من الآليات والتقنيات التي تمكنه من استدعاء الشخصيات، من هذه الآليات أن يكون الاستدعاء بالاسم الصريح ومن ذلك استدعاؤه للنقباء الاثني عشر الذين بايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم في بيعة العقبة الثانية؛ إذ بعث بهذه الرسالة المباشرة إلى أبي سفيان، وهو يمثل الشخصيات التي كانت تحارب الإسلام سرا وعلانية، ثم عدد أسماء النقباء،

١٣٤- ديوان كعب: ص / ٨٣.
١٣٥- المصدر نفسه: ص / ٣٨ ٣٩.

فالنص يستحضر بيعة العقبة بأهميتها في تاريخ السيرة النبوية العطرة:

وأَبْلِغْ أبا سُفْيانَ أَنْ قَدْ بَدَا لَنَا ... بِأَحْمدَ نُورٌ مِنْ هُدَى اللهِ سَاطِعُ
فلما تَرْغَبَنْ في حَشْدِ أَمْرٍ تُرِدُهُ ... وأَلْبٌ وجَمّعْ كُلَّ مَا أَنْتَ جَامِعُ
ودُونَك فَاعْلَمْ أَنّ نَقْضَ عُهُودِنَا ... أَبَاهُ عَلَيْكَ الرّهْطُ حينَ تَتَابَعُوا
أَبَاهُ البَرَاءُ وابْنُ عَمْرو كِلاهُما ... وأَسْعَدُ يَأْبَاهُ عَلَيْكَ وَرَافِعُ
وَسَعْدٌ أَبَاه السّاعِديُّ وَمُنْذِرٌ ... لأنفِكَ إنْ حَاوَلْتَ ذلك جَادِعُ
وَمَا ابْنُ رَبيعٍ إنْ تَناوَلتَ عَهْدَهُ ... بِمُسْلِمِه لاَ يَطْمَعَنْ ثَمّ طَامِعُ
وأيْضاً فلاَ يُعْطيكَهُ ابنُ رَوَاحَةٍ ... وإخْفَارُهُ مِنْ دُونِهِ السُّمُّ نَاقِعُ
وفاءَ بِها والقَوْقَليُّ بنُ صَامِتٍ ... بِمُنْدُوحةٍ عَمّا تُحَاوِلُ يَافِعُ
أَبُو هَيْثَمٍ أَيْضا وفيٌّ بِمِثْلِهَا ... وَفَاءً بِمَا أَعْطى مِنَ العَهْدِ خَانِعُ
وسَعْدٌ أَخُو عَمْرِو بنُ عَوفٍ فَإِنَّهُ ... ضَرُوحٌ لِما حَاوَلْتَ مِ الأَمْرِ مَانِعُ[١٣٦]

وفي مقارنة بين الماضي والحاضر يسقط الشاعر ملامح بعض الشخصيات التاريخية؛ بل يستخدمها استخداما فنيا يحمل معاني الاستنكار والاستهجان ومن ذلك استدعاؤه لقصة الملك تُبّع[١٣٧] وما أضمره في نفسه من سوء تجاه بيت الله الحرام، ونفخ الشاعر في قصة الملك الحميري روحا جديدة؛ مما أكسب هذه الصورة أبعادا فنية جديدة، وبذا تمكن الشاعر من إعادة صياغة التاريخ، وكتابته وفق معايير معرفية جديدة، جمع فيها بين الماضي وما يزخر به من عادات الجاهليين

١٣٦- المصدر السابق: ص/ ٥٦.
١٣٧- ابن كثير، عماد الدين إسماعيل بن عمر:البداية والنهاية، (٧٠١ ٧٠٤هـ)، تحقيق عبد الله عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر ط١، ١٩٩٧م، ج٣/ ١٢٣

وتقاليدهم، والحاضر الذي أشرقت فيه شمس الحق:

أَغَثْتَ أَبَا كَربٍ وأَعْيَتْ تُبَّعاً ... وأَبَتْ بَسَالَتُها على الأَعْرابِ

ومن التناص التاريخي ذكر الشاعر لقتلى بدر وأحد؛ حيث يستحضر الشاعر التاريخ، ويختزل ما مر به من أحداث، حتى يرفد الحاضر بأحداث الماضي، والهدف العظة والعبرة:

فَأَقامَ بالعَطَنِ المُعطَّنِ مِنْهُمُ ... سَبْعونَ: عُتبةُ مِنْهمُ والأَسْوَدُ
وابنُ المغيرَةِ قَدْ ضَرَبْنا ضَرْبَةً ... فَوقَ الوَريدِ لهَا رَشاشٌ مُزْبِدُ
وأُمَيّةُ الجُمَحيُّ قَوَّمَ مَيْلَهُ ... عَضْبٌ بأَيْدِي المُؤمنينَ مُهَنَّدُ[١٣٨]

بينما ذكر ابن هشام: «أن قتلى بدر من المشركين كانوا سبعين رجلا، والأسرى كذلك، وهو قول ابن عباس، وسعيد بن المسيب في كتاب الله تبارك وتعالى ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١٣٩] وفي غزو أحد استشهد حمزة بن عبد المطلب عمّ الرسول صلى الله عليه وسلم، والتناصّ مع هذه الحقيقة التاريخية[١٤٠] في قول كعب:

ولَقَدْ إخالُ بِذاك هِنْدا بُشِّرتْ ... لتُميتَ داخِلَ غُصَّةٍ لا تَبْرُدُ[١٤١]

وهكذا تمكّن كعب من خلال التناصّ من تحريك مشاعر المتلقّي وانفعالاته عن طريق الطرح المتماسك. وكما تنوعت آليات استدعاء الشخصيات التاريخية التي ذكرها كعب بن مالك، كذلك اختلفت عصورها وتباينت شخصياتها؛ منها الأنبياء

١٣٨- ديوان كعب: ص: ٣٧ ٣٨.
١٣٩- سورة آل عمران آية/ ١٦٥.
١٤٠- ابن كثير: البداية و النهاية، ج٥/ ٣٦٠.
١٤١- ديوان كعب: ص/ ٣٨.

والرسل؛ أي شخصيات دينية، كسليمان ونوح عليهما السلام، ومنها شخصيات
أدبية.

ومما سبق تتضح لنا أهمية التناص التاريخي، إذ يسمو بالخطاب الشعري مر
خلال التوثيق للحقائق والتأريخ للأحداث، كذلك استطاع كعب بن مالك مر
خلال توظيف التناص التاريخي لنصرة الدين الإسلامي وذلك عندما ربط بين
حالة الظلام والظلم التي كانت سائدة في بيئة الحجاز قبل الإسلام، وما آل إليه
حالهم بعد أن انقشع الكفر، وحلت محله سماحة الإسلام، كما أرخ الشاع
لغزوة أحد وعدد جنود المسلمين الذين اشتركوا في القتال:

ثَـلاثـةُ آلافٍ وَنَـحْـنُ نَصـيَّةٌ ثَـلاثُ مِئينٍ إنْ كَـثُرنَـا وأرْبَـعُ(١٤٢)

ومن مظاهر تناصّه مع التراث الاجتماعي قوله: «جَاءتْ سَخِينةُ»(١٤٣).

وخلاصة القول أن التناص التاريخي يعطي القصيدة قوة؛ فضلا عن التأري
للأحداث وتوثيقها، كذلك التناصّ التاريخي يقوم بردم الفجوات بين الماض
والحاضر؛ فيحكم بالعدم أو الزوال على الفواصل بين المراحل الزمنية، وتناصّ
خطاب كعب بن مالك الشعري مع التراث مؤشر مهمّ على مدى إلمامه بالتراث
ودوره الفعال في صياغة واقع الخطاب الشعري؛ لأن التفاعل مع الماضي يصه
عملية الإبداع؛ إذ يمنح الشاعر لوحات فنية تترجم ثقافته، فضلا عن علوم
ومعارفه.

والتناصّ مع التراث يجعل النص يغوص داخل السياقات القديمة، ثم يعي
توظيفها برؤى عصرية جديدة توضح الجوانب الخفية في خطاب الشاعر.

١٤٢- المصدر السابق: ص/ ٦٠.
١٤٣- ينظر ص/ ٣٠ من هذا البحث.

النتائج

ومن خلال دراسة ظاهرة التناص في شعر كعب بن مالك، نخلص إلى النتائج الآتية:

نظرية التناصّ من النظريات التي تقع على عاتقها مهمة إبراز جماليات النص، كما تبرز مدى استفادة النص الحاضر من النص الغائب، لما تمتلكه من أدوات التعبير، وآليات الاستدعاء، وامتصاص العديد من التجارب.

تترجم نظرية التناص مدى ثقافة الشاعر، وتعكس في الجانب المقابل اهتمام التناص بالمبدع الثالث وهو المتلقي؛ إذ يسمو بحسه الأدبي وذوقه الفني؛ لأنه يؤهله بطريقة خفية إلى التمكن من ثقافة الربط بين النصوص المختلفة مهما تباينت، وعندئذ يستطيع أن يبدي رأيه من حيث اللفظ أو المعنى أو الأسلوب أو كيفية الطرح والعرض؛ وهذه المحاور تلخص أهم ملامح القارئ المبدع؛ مما يدل على أنه يتمتع بحس أدبي، وثقافة واسعة؛ لذا يستطيع الغوص داخل أعماق النص، لعقد موازنات مع النصوص الغائبة.

لا يتم التناص إلا في وجود الحد الأَدْنى من التفاعل بين النصوص، فضلاً عن ذلك، فالتناص ينهل من معين شتى العلوم والمعارف والإرث الثقافي والفكري، وكل هذه المحاور ترفده بطاقات الإبداع؛ ليحلق فوق آفاق الجمال، وقد تختلف آليات التفاعل وتتباين؛ ولكنها تتفق في المهمة العظيمة الملقاة على عاتقها وهي تحديد ملامح الإبداع والتميز في العمل الأدبي.

من الصعوبة الحكم على أي عمل أدبي أو نتاج فكري قديما أو حديثا بالسرقة، لأن من معاني التناص إعادة صياغة النصوص القديمة وإخراجها بزي العصر الحاضر وروحه، وما يفرضه العصر من تحديات لابد من مواكبتها، وقد تكون

هذه النصوص اتخذت من الذاكرة ملاذا لها، وأحيانا يستوعبها الوعي
وقد تشق طريقها إلى اللاوعي..

- اقتباسُ خطاب كعب بن مالك الشعري مع القرآن، والحديث النبوي
الشريف، أكْسَبَ تجربتَه الشعرية تفردا وتميزا، و هيأ له أسباب الذّود عن
محارم الله تعالى.

- سما التناصّ مع التاريخ بخطاب كعب بن مالك الشعري، وذلك من خلال
التوثيق للحقائق.

- لقد رفد التراث الأدبي كعب بن مالك بمعارف متباينة؛ لأنه أدرك كنهه
وغاص في دواخله، وأصبح جزءا من مخزونه الثقافي والفكري، فوظف
آلياته برؤى إسلامية، ومعارف دينية.

- التناص مع الموروث مؤشر مهمّ على مدى إلمامه به، وأهميته في صياغ
واقع الخطاب الشعري؛ لأن التفاعل مع الماضي يصقل عملية الإبداع؛ إ
يمنح الشاعر ابلوحات فنية، تترجم ثقافته، فضلاً عن علومه ومعارفه، كذلك
التناصّ مع الموروث يجعل النص يغوص داخل السياقات القديمة، ثم يعي
توظيفها برؤى عصرية جديدة توضح الجوانب الخفية في خطاب الشاعر.

ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- أدونيس: النص القرآني وآفاق الكتابة، دار الآداب، بيروت، د. ت.
- ألفينو / مارك:

١- أصول الخطاب النقدي، ترجمة أحمد المديني، دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٨٧م.

٢- آفاق التناصية، ترجمة: محمد خير البقاعي، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٨م.

- أنيس، إبراهيم وآخرون: المعجم الوسيط، دار الفكر بيروت، د.ت.
- إميل يعقوب و ميشال عاصي: المعجم المفصّل في اللغة والأدب، دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٧م.
- البادي، حصة: التناص في الشعر الحديث البرغوثي نموذجا حصة البادي، دار كنوز المعرفة الأردن ط١ ٢٠٠٩م.
- البخاري، أبو عبدالله بن إسماعيل: صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق بيروت ط١ ٢٠٠٢م.
- البغدادي، عبد القادر بن عمر: خزانة الأدب، القاهرة د.ت.
- بنيس، محمد:

١- الشعر العربي الحديث بنياته وإبدالاتها: درا توبقال، المغرب ط١، ١٩٩٠م.

٢- ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب، دار العودة بيروت ١٩٧٩م.

- تودوروف تزفيتان: الشعرية، ترجمة شكري المبخوت، ورجاء بن سلامة، دار توبقال للنشر الدار البيضاء ط١، ١٩٨٧م.

- الجاحظ، عمرو بن بحر: الحيوان، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون دار الجيل بيروت، ١٩٨٨م.
- جوليا كرستيفا: علم النص، ترجمة: فريد الزاهي، دار توبيقال الدار البيضاء د. ت.
- جيدة، عبد المجيد: الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، مؤسسة نوفل بيروت ط١، ١٩٨٠م.
- الحريري، عبد اللطيف، السرقات الشعرية بين الآمدي والجرجاني: ط١ ١٤١٦هـ.
- الحصري، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني: زهر الآداب وثمرة الألباب شرح زكي مبارك دار الجيل بيروت لبنان الطبعة الرابعة د.ت.
- ابن خلدون، عبد الرحمن: مقدمة ابن خلدون: دار القلم بيروت لبنان ط١ ١٩٧٨م.
- خليل، إبراهيم: من معالم الشعر الحديث في الأردن وفلسطين، دار مجدلاوي الأردن، ط١، ٢٠٠٦م.
- رولان بارت لذة النص، دار الشجرة للنشر والتوزيع باريس ط٢، ٢٠٠٢م
- زايد، علي عشري: استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر دار الفكر العربي القاهرة ١٩٩٧م.
- الزعبي، أحمد: التناص نظريا وتطبيقيا، مؤسسة عمون للنشر والتوزيع عمان، ط٣، ٢٠٠٠م.
- ابن سعد، أبو عبد الله محمد: الطبقات الكبرى، ليدن ١٣٢٢هـ.

- السعدني، مصطفى: قراءة أخرى لقضية السرقات، منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٩١م.
- ابن سلام، محمد الجمحي: طبقات فحول الشعراء: تحقيق: محمود شاكر مطبعة المدني جدة د. ت.
- شبل، عزة محمد: علم لغة النص النظرية والتطبيق: مكتبة الآداب القاهرة ٢٠٠٩م.
- الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك(تاريخ الطبري)، دار الكتب العلمية بيروت ط١، ١٤٠٧هـ.
- العسكري، أبو هلال: كتاب الصناعتين الكتابة والشعر: تحقيق علي بن محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، د. ت.
- عبد الصبور، صلاح: قراءة جديدة لشعرنا القديم، بيروت لبنان، د.ت.
- ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي: شذر الذهب في أخبار من ذهب، مصر ١٣٥٠هـ.
- العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين(٦١٦هـ): إعراب الحديث النبوي الشريف، تحقيق عبد الإله نبهان، مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق ط٢، ١٩٨٦م.
- علي، أحمد يوسف قراءة النّص، دراسة في الموروث النقدي: مكتبة الأنجلو المصريّة القاهرة ١٩٨٨م.
- عيد، رجاء: التراث النقدي (نصوص و دراسة)، منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٨٣م.

- الغذامي، عبدالله

١- ثقافة الأسئلة «مقالات في النقد والنظرية»، النادي الأدبي الثقافي، جد ط٢، ١٩٩٢م.

٢- الخطيئة والتكفير، الهيئة المصرية العامة للكتاب ط٤، ١٩٩٨م.

- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكريا القزويني الرازي (٣٩٥هـ)

١- معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت، ط١ ١٩٩١م.

٢- الصحابي في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق عم فاروق، دار المعارف ط١، بيروت ١٩٩٣م.

- فراج، أحمد: نظرية علم النص ورؤية منهجية في بناء النص النثري مكتب الآداب القاهرة، ٢٠٠٣م.
- الفكيكي، عبد الهادي: الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر العربي، النمو للنشر والتوزيع، دمشق ط١، ١٩٩٦ م.
- الفيروز آبادي: القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة بيروت ط٥، ١٤١٦ هـ.
- القرطاجني، حازم: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق وتقديم، محم الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط٣، ١٩٨٦م.
- القلقشندي، أبو العباس أحمد: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقي إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط٣، ١٤١١ هـ.
- ابن الكلبي، هشام بن محمد السائب: كتاب الأصنام، تحقيق أحمد زكي باشا، مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة ط٢، ١٩٢٤م.

- ابن كثير، عماد الدين إسماعيل بن عمر: البداية والنهاية(٧٠٤هـ) تحقيق عبد الله عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر الطبع، ١٩٩٧م.
- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (٢٨٥هـ).

١- كتاب الفاضل، تحقيق عبد العزيز الميمني، دار الكتب المصرية ط٢، ١٩٩٥م.

٢- الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أبو الفضل دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، ١٩٩٧م.

- مرتاض، عبد الملك: دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة ابن البلاد لمحمد العبد آل خليفة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د. ت.
- مفتاح، محمد:

١- تحليل الخطاب الشعري(استراتيجية التناص)، المركز الثقافي، الدار البيضاء المغرب ط٣، ١٩٩٢م.

٢- دينامية النص: محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ط١ ١٩٨٧م.

- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر بيروت، ط٢، ١٣٠٠هـ.
- النيسابوري، أبو الحسن أحمد بن محمد: أساب النزول، شرح وتحقيق رضوان جامع رضوان، مكتبة الإيمان المنصورة مصر، ١٩٩٦م.

الدواوين الشعرية

- ديوان حسان بن ثابت: شرح وتقديم عبدأ. مهنا، دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الثانية ١٩٩٤م.

- ديوان زهير بن أبي سلمى: شرح حمدو طماس، دار المعرفة بيروت، لبنان الطبعة الثانية ٢٠٠٥م.
- ديوان عمرو بن كلثوم: جمع وتحقيقك أميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى ١٩٩١م.
- ديوان عنترة: مطبعة الآداب بيروت ١٨٩٣م.
- ديوان كعب بن مالك الأنصاري: تحقيق وشرح مجيد طراد، دار صاد للطباعة والنشر بيروت لبنان ط١، ١٩٩٧م.
- ديوان كعب بن زهير: الحسن بن الحسين السكري، تقديم حنا نصر، دا الكتاب العربي الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

الدوريات والمجلات

- مجلة المركز الثقافي: جدة، ديسمبر ١٩٩٩م.
- مجلة علامات النادي الأدبي الثقافي جدة ١٩٩١م.
- مجلة جامعة النجاح للأبحاث، العدد الرابع ٢٠٠٤م.
- مجلة الجمعية العلمية الايرانية للغة العربية وآدابها العدد السادس عش ٢٠١٠م.
- مجلة فصول القاهرة، المجلد الأول، العدد الرابع ١٩٨١م.

Abstract

Intertextuality in the Prophetic Praise (Al Madih Al Nabawi) Poetry: Kaab bin Malek as an Example

Dr. Souad Sayyed Mahjoub

This study aims at understanding the concept of Intertextuality, revealing its most important aspects in the prophetic praise poetry (Kaab bin Malek as an example), diving into its core to better understand it, and recognizing the textual interaction among texts. The study also aims at knowing the mechanisms upon which this method is built and knowing the extent of its effectiveness and characteristics. The study also aspires to implement some positive characteristics in the Arabic criticism and to employ modern critical theories as it adds toward the improvement of literary criticism. It will highlight intertextuality in the prophetic praise poetry taking Kaab bin Malek as an example since he represents the religious and literary intertextuality with history and tradition.